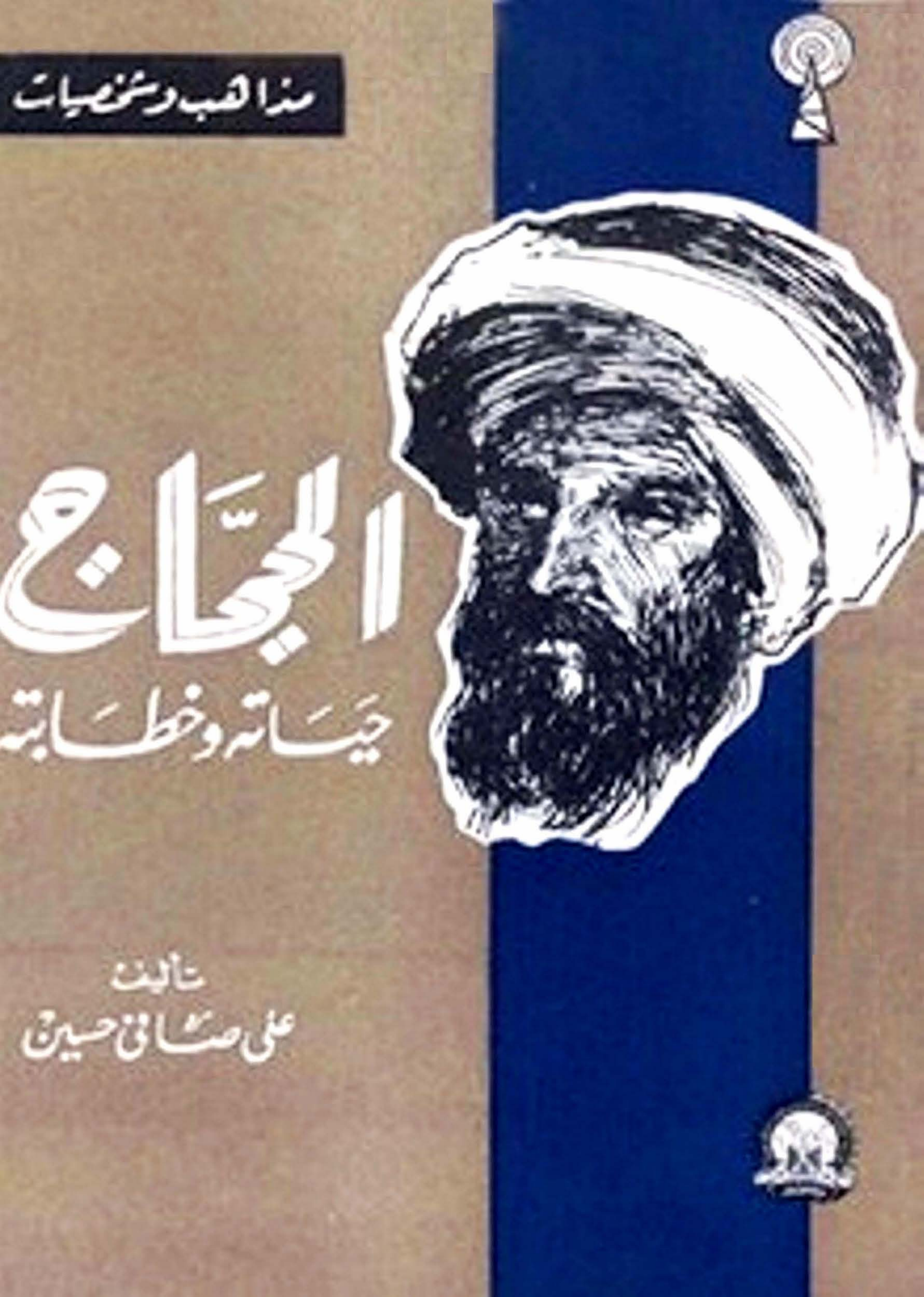
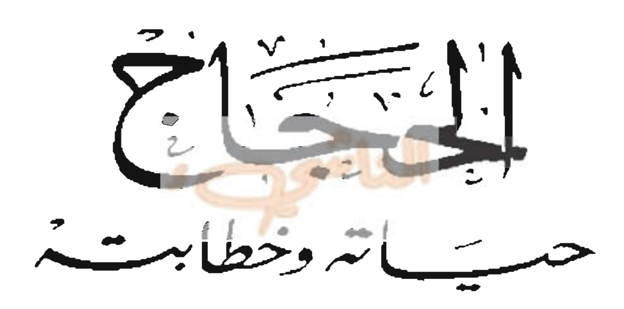

مذاهب وشخصيات
الحجاج
حياته وخطابته
تأليف
علي صافي حسين

مذاهب وشخصيات




تأليف
علي صافي حسين

# تمهيد

لقد اتخذت حياة الحجاج وخطابته موضوعا لهذا الكتاب دون غيره من الموضوعات التى تستوجب الدرس وتتطلب البحث والتمحيص ، وهى موضوعات كثيرة ، منها ما هو شعر ومنها ما هو نثر ، والشعر فنون وأنواع ، والنثر كذلك كان فى العصر الأموى فنونا وأنواعا ، فكما كان الشعر فى العصر الأموى غزلا ونسبا ووصفا للطبيعة ومناقضة ومدحا أو هجاء كذلك كان النثر قصصا وخطبا ورسائل وحكما وامثالا ، وكل نوع من هذه الانواع النثرية او الشعرية لا يزال بحاجة الى عمق البحث وتمحيص الدرس ، ولكن الحجاج كخطيب لم يجد اية عناية من اى باحث ولا ناقد ولا أديب حتى أساتذة الجامعات فانهم حينما يعرضون للنثر الفنى فى العصر الأموى بالتاريخ والدرس لا يعرضون للحجاج كخطيب فى شىء كثير ، وقد لا يعرضون له ابدا ، والذين يعرضون له يقتصرون على ذكر الخطبة التى القاها اول مرة فى اهل العراق بعد أن ولى أمرهم من قبل عبد الملك بن مروان وهى خطبته المعروفة التى لا يكاد يجهلها احد من أوساط المثقفين ، وهم حين يذكرون تلك الخطبة لا يزيدون على سردها شيئا سوى ان يذكروا الزمان والمكان اللذين القيت فيهما الخطبة ، مثلهم فى ذلك مثل المؤرخ العام الذى يبين الظروف والأحوال التى يعتقد أو يظن انها صاحبت ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو حدثا من الأحداث الدولية وما اشتملت عليه عبارات تلك الخطبة من بديع الفن وبارع التصوير • اما تلك الاشعاعات الفنية والمعانى الأدبية التى شحن بها الحجاج القاظه وضمنها جمله ، فانهم – أعنى أولئك الادباء والباحثين – لم يعرضوا لها بشىء من هذا لا من قريب ولا من بعيد اذا هم عرضوا للحجاج وذكروا خطبته .

والقصد من هذا أن أقول : ان الأدباء والباحثين والعلماء المحققين قد غمطوا الحجاج حقه كخطيب له طاقة خطابية ومقدرة فنية ، ولم يعطوه شيئا مما يستحقه من عناية البحث العلمى والتحقيق الأدبى ، لذلك كله آثرت هذا الموضوع على ما سواه عسى أن أوفق فى تبيان طاقة الحجاج

الخطابية وتصوير مقدرته الفنية ، وأن أبين منزلته الرفيعة التي ينبغي أن يتبوأها بين خطباء العالم أجمع ، سواء آكانوا عربا أم من الاغريق والرومان ، وحتى في هذا العصر فان الحجاج يعتبر أستاذ الخطباء الذين يجعلون في حسابهم ما تتطلبه نفوس المخاطبين أو السامعين عن عنصر المفاجأة في الخطابة والقدرة على الاقناع ، وذلك خدمة للشبيبة الناشئة وبخاصة ارباب الفكر وطلاب الثقافة وعشاق الأدب بوجه عام ، وقد رتبت هذا البحث على مقدمة وخمسة ابواب : الأول في خطابة العصر الجاهلي ، والثاني في خطابة صدر الاسلام ، والثالث في خطب الحجاج وتبيان معانيها الفنية وشرح صورها الأدبية ، وفي الكشف عن طاقته الخطابية ومنزلته السامية بين الخطباء ، والرابع في خطابة الأحزاب التي كانت تعيش الى جنب الحزب الحاكم ، واعني به حزب الأمويين • وتلك الاحزاب هي الشيعة والخوارج والزبيريون والباب الخامس في تبيان أثر الحجاج في خطباء بني العباس ، وقد ختمت هذا البحث بكلمة أوضحت فيها تأثر خطباء العباسيين بوجه عام بخطباء أحزاب عصر بني امية .

# تقـــديم

يجمل بى قبل الحديث عن الحجاج وخطبه وبيـــان طاقته الخطابية ومنزلته بين الخطباء العرب يحسن بى قبل ذلك كله ، لن أعرض فى ايجاز لنشأة الخطابة وتطورها ، ثم ألم المامة سريعة بها عند العرب في العصور التى سبقت عصر الحجاج .

لقد نشأت الخطابة في وقت مبكر جدا لا يستطيع انسان ان يحدده أو يعينه ، وكل ما يقال فيه ظن وتخمين ، والأصوب أن يقال ان الانسان ، كما يقول علماء الاجتماع ، مدنى بطبعه ، أعنى أنه مفتقر الى غيره من أفراد بنى الانسان ، فهو لا يستطيع ان يعتزلهم او ان يعيش وحده منفردا ، وهذا معناه أن الانسان استخدم اللغة مختارا أو غير مختار بحكم ضرورة الاجتماع ، فاللغة هى ولا شك الوسيلة التى يتفاهم بهـــا الأفراد فيما بينهم ؛ فهم يعبرون بها عن أغراضهم ويصـــورون بوساطتها انفعالاتهم . وبالجملة فهى الأداة التى استخدمها الانسان فى الماضى ومازال يستخدمها ولن يزال أبدا فى التعبير عما يجيش فى صـــدره ويختلج فى نفسه من رغبات وأغراض وآراء ، وبطبيعة الحال كان الفرد من بنى الانسان يلقى من الأفراد الآخرين فى بعض الأحيان معارضة فيما يريد أو يطلب أو يدين به أو يعتقده ، الأمر الذى دفع ذا الحاجة أو صاحب الفكرة الى أن يحاول جهده اقناع صاحبه حتى يحقق غرضه ويبلغ منه ما يريد . بهذا ظهرت الخطابة ، ولكنها كانت فى أول أمرها ككل شىء مستحدث بدائية بحيث لم تخرج عن الكلام المألوف لدى الجميع ، كما أعتقد أنها كانت مقدورة أيضا للجميع ، فالكل يحاول اقناع غيره بفكرته أيا كان نوعها ، وبلغة أيا كان لفظها ، ثم تطورت حتى أصبحت أمرا خاصا بذوى المواهب والثقافات ، بل صارت أصعب من ذلك وأعمق ، اذ جعل منها السوفسطائيون فى القرن الخامس قبل الميلاد علما له أصوله وقواعده ، فكان كثير منهم يتنقلون فى بلاد الاغريق يعلمون هذا العلم الجديد للفتيان والشباب ، وكان فى مقدمتهم الزعيمان السوفسطائيان جرجياس وبروتاغوراس ، وقد كان لها كذلك معلمون لدى العرب ظهروا كمؤدبين بشكل واضح وعلى صورة

ثابتة لا يتأتى معها انكارها بحال من الأحوال ، وكان ذلك فى العصر العباسى الاول ، عصر النور والضياء والعلم والأدب ، ذلك العصر الذى نشطت فيه الترجمة، واتسع النقل الى العربية من لغات الأمم ذات الحظ الاوفر من الحضارة والمدنية كالفرس واليونان وغيرهم ، ويدل على ذلك ماروراه الجاحظ عن بشر بن المعتمر فى كتابه «البيان والتبيين». واليك الرواية قال(١) : مر بشر بن المعتمر على ابراهيم بن جبلة بن مخرمة التلونى الخطيب وهو يعلم فتيانه الخطابه ، فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان فيها ذلك الكلام ، خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن فى الأسماع واحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطا واجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ، ومهما أخطاك لم يخطئك أن يكون كلامك مقبولا قصدا ، خفيفا على اللسان سهلا ، وكذلك كل ما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ... الخ » .

وهذا دليل قوى واضح ، على أن العرب عرفوا الخطابة واتخذوها صناعة وكان لها مؤدبون محترمون يروضون الناشئة والفتيان على الخطابة ويعلمونهم كيف يخطبون ، اعنى أنهم كانوا يرسمون الطرق والأساليب ويصفون المناهج والأصول التى ينبغى أن يتمثلها الخطباء والتى ينبغى أن تكون الخطب على مقتضاها ، وهى أصول وقواعد مرنة فيها حيوية ، ولها قابلية التطور والنماء كما تشعر بذلك أو تعطيه صحيفة بشر بن المعتمر ، هذا على أن من يقرأ كتاب الخطابة لأرسطو يجد فيه الكلام على الحد والرسم والدليل ، وكيف يتكون القياس الخطابى ، ثم يرى فيه الكلام على التصريف الذى يكتفى به فى الخطابة .

والقصد من كل هذا أن اقول : ان خطابة العرب أوغل فى الفنية ، وحيويتها ، والصق بالأدب وأدنى الى الحس والوجدان من تلك الخطابة التى وضع قواعدها وحدد أصولها حكيم الاغريق الفيلسوف اليونانى ارسطو طاليس .

فان الخطابة عنده تقترب من جفاف العلم وعناء الفلسفة بقدر مابتعد عن حيوية العاطفة ومرونة الشعور ، اعنى أن الخطابة عند ارسطو علم

---

(١) انظر الجاحظ ـ البيان والتبيين .

بحث ، بل هي جزء من المنطق الذي مداره على الحجة والبرهـــان لا على الشعور والوجدان ، ومعنى هذا أن الخطابة ليست في رأى ارسطو أدبا ولا قريبة منه ، بل هي علم له قواعده واصوله ، وهذا في اعتقادى خروج بالخطابة عن طبيعتها الفنية التي هي لون من الوان الأدب ، ولعل ابن سينا استشعر ذلك حيث قال في كتابه « الشفاء » يبرر صنيع ارسطو أو غيره من الحكماء قال « ان الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في اقســـام المنطق ، لأن المقصـــود من المنطق أن يوصل الى التصديق فان أوقع التصديق يقينا فهو البرهان ، وان اوقع ظنا أو محمولا على الصدق فهو الخطابة . اما الشعر فلا يوقع تصديقا لكنه لافادة التخيل الجارى مجرى التصديق ، ومن حيث أنه يؤثر في النفس قبضا أو بسطا عد في الموصل الى التصديق والتخيل عقدة ادعان للتعجب والالتذاذ تفعله صـــــورة الكلام » .

وهذه محاولة — في اعتقادى — من فيلسوف العرب ابن ســـينا قد جانبها التوفيق وخذلها الحق وجافاها الصواب ، فان الاقناع المنطقي يختلف كل الاختلاف عن الاقناع الخطابي فبينما يعتمد المنطق أو العلم في الاقناع على الأدلة العقلية والبراهين المادية ، نجد الخطابة تعتمد في اقناعها وبلوغ غايتها على اثارة الشعور وتحريك الوجدان في نفـــوس الســـامعين وقلوب المخاطبين ، والفرق اذن بين المنطق والخطابة يقـاس بالفرق بين العقل والعاطفة اذ لا يشك أحد في ان العقل شيء قائم بذاته له وجوده المستقل ، وأن العاطفة كذلك تغايره في وجودها وتختلف عنه في جوهرها ، لذلك فان الخطابة التي هي فيما أرجح تنساب من الارادة وتنصب في الشعور ، تختلف تمام الاختلاف عن المنطق الذى مصـــدره العقل .

# الفصل الأول

# عصر الحجاج

## أو عصر بني أمية حتى خلافة الوليد بن عبد الملك

**متى بدأ هذا العصر ؟**

يحدد المؤرخون هذا العصر من الناحيتين السياسية والزمانية بعام الجماعه ، وهو العام الذى تنازل فيه الحسن عن حقه فى الخلافة وبايع بها معاوية . وكان ذلك سنة أربعين للهجرة ، فهو وان كان صحيحا من الناحية الزمانية والمظهر السياسى العام للدولة الاسلامية ، الا أنه من الناحية الأدبية والعقلية بوجه عام كان اقدم من ذلك بكثير ، والأرجح عندى أن العصر الأموى من الناحيتين الأدبيـة والفكرية قد بدأ بمقتل عثمان ، وليس بموقعة صفين كما ارتأى ذلك بعض الباحثين اذ ان كثيرا من الشعراء والخطباء قالوا شعرهم والقوا خطبهم فى الحض على الثار لعثمان وتاييد معاوية ، وجمع الناس حوله ، وتاليبهم على على لاعتقادهم انه هو المسئول عن قتل عثمان ، وقد اشاعوا ذلك فى الناس وقالوا انه ـ أعنى عليا كرم الله وجهه ـ قد حمى قتلة عثمان والأمر الذى لا شك فيه هو أن معاوية وعمرو بن العاص أخذا يخطبان منذ اللحظة الأولى لخبر مقتل عثمان يحمسان أهل الشـام ويؤججان فى قلوبهم عواطف الثار والانتقام لعثمان من على واصحابه ، وهذا معناه أن عصر الخطابة الأموية قد بدأ قبل عام الجماعة وموقعة صفين .

## رقى الخطابة وأسباب ازدهارها فى هذا العصر

وقد ارتقت الخطابة ابان العصر الأموى وازدهرت كل الأزدهار لان الحياة فى هذا العصر كانت تقتضى الخطابة ، وتبعث عليها بكل ما فيها من عناصر ومقومات ، فالأحوال السياسية والاجتماعية والدينية كلها كانت تدعو الى الخطابة ، واليك صورة مصغرة لتلك الأحوال .

أولا: الاحوال السياسية فى النصف الثانى من خلافة عثمان : كثر الكلام عن عثمان وولاة عثمان ، كما اظهر أهل الأمصار الاسلامية سخطهم على الولاة واتهم بعضهم بالجور فى الحكم والاثم فى الدين .

وكان عثمان يستجيب لبعضهم أحيانا ، فيولى محمد بن أبى بكر مثلا على مصر ، كما استبدل والى الكوفة ، ولكنه على كل حال لم يكن - لهدوئه ولينه - بالخليفة الذي يقمع الفتن ويخرس الألسنة ويقضى على دعاة الشغب والانتقاض ، فكان أن خرج جمع من البصرة يتردد عددهم بين الألف والستمائة ، ومثلهم من الفسطاط والكوفة ، مظهرين الحج ولكنهم لم يحجوا وانما ذهبوا الى المدينة حيث احدقوا ببيت عثمان ، وبعد أن أقنعهم بسلامة موقفه وفساد ما ادعوه عليه من اتيانه امورا لا يقرها الدين ، وذلك كجمعه بين الصلاتين وهو فى طريقه الى الحج ، وبعد أن اقتنعوا ، او بعبارة اصدق بعد ان افحموا جميعا ، رجعوا ادراجهم ولكنهم لم يبتعدوا كثيرا عن المدينة حتى اجتمع بعضهم الى بعض برغم أن كل فريق سلك طريقا مغايرا لطريق الآخر ، اذ أن البعض عراقيون والبعض الاخر مصريون وطريقهما دون شك مختلفة ، وقرروا العودة الى المدينة ومحاصرة عثمان · وقد فعلوا وانتهى أمرهم بقتله ، ثم بايعوا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقد بايعه أهل مصر والعراق والحجاز واليمن ، ولكن أهل الشام لم يبايعوه ، كما أن قريشا لم تلبث أن انتقضت عليه بقيادة عائشة أم المؤمنين وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام · ولكن عليا انتصر عليهم فى موقعة الجمل ، ولم يكد يفرغ من حرب هؤلاء حتى طالبه معاوية بدم عثمان ، ثم كانت بينهما موقعة صفين التى أوشك أن ينتصر فيها على لولا خدعة التحكيم التى ابتكرها لمعاوية عمرو بن العاص ولم تكن الحيلة لتنطلى على على ، لولا ان جيشه قبل ذلك وارتضاه الأمر الذى ارغم عليا على ان يوافق على تلك الفكرة الخبيثة وان ينتدب للتحكيم أبا موسى الأشعرى ، كما اختار معاوية من جانبه الداهية عمرو بن العاص· وكما خدع عمرو جيش على بوضع المصاحف على الأسنة والسيوف ، خدع أبا موسى الأشعرى ، الذى وصفه ابن الاثير بالتفصيل اذ قال عنه بعد أن ذكر اسمه ، وكان شيخا مغفلا ، اذ اتفق معه عمرو على خلع معاوية وعلى كليهما ، ثم ترك أبا موسى يتقدم فيعلن رأيه أولا على الناس بالمسجد الجامع ، وبعد ان قال أبو موسى انى خلعت عليا ومعاوية كما اخلع عمامتى هذه ، وقف عمرو بن العاص فقال انه قد خلع صاحبه وانا اثبت صاحبى ، وكانت نتيجة هذا التحكيم الفرقة والانقسام فى جيش على ، اذ خرج نحو اثنى عشر الفا على «على» وقالوا ان ابن أبى طالب قد كفر لأنه حكم الرجلين ولم يحكم القرآن ، ومعنى هذا فى رأيهم انه لم يحكم بما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون ، كما جاءت بذلك الآيات القرآنية ، وقد ناقشهم فى ذلك عبد الله بن عباس فرجع منهم ثمانية آلاف ، ثم قتل على وبويع ابنه الحسن من بعده ، الا ان الحسن لم يثق فى أهل العراق فعقد صلحا مع معاوية وبايعه بالخلافة على أن يترك الأمر بعده شورى بين المسلمين ، ولكن معاوية قد نقض هذا العهد

فأخذ البيعة لابنه يزيد ، وخـــير قول يصور نفسية الناس حين ذاك ما حكاه المبرد في كتابه الكامل ، واليك النص ، قال « يروى أن معاوية لما نصب يزيد لولاية العهد اقعده في قبة حمراء فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون الى يزيد حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع الى معاوية فقال : ياأمير المؤمنين اعلم انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها . والأحنف بن قيس جالس ، فقـــال له معـــاوية ، وما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ فقـــال : أخاف الله ان كذبت واخافكم ان صدقت ، فقال : جزاك الله عن الطاعة خيرا وأمر له بالوف ، فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب فقال يا أبا بحر اني لأعلم ان شر من خلق الله هذا وابنه ولكنهم قد استوثقوا من هـــذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلســـنا نطمع في استخراجها الا بما سمعت فقال له الأحنف : ياهذا امسك عليك ، فان ذا الوجهين خليق الا يكون عند الله وجيها » ، ومعنى هذا أن الناس كانوا أحد اثنين : منافق يظهر لمعاوية الحب والتأييد وهو يضمر كرهه ويخفي بغضه ، والأخير مؤمن يتقي الله ولكنه لا يقول شيئا يغضب منه الخليفة ، وقد بقي الناس على تلك الحال حتى مات معاوية وتولى يزيد ، فخرج عليه الحسين ولكنه قتل شر قتلة في كربلاء ، ثم خرج ابن الزبير وبايعه أهل الحجاز وغلب أخوه مصعب باسمه على العراق • ولكن عبد الملك انتصر عليه وثبت الملك في بني مروان • واما الخوارج فقد ظلوا طيلة هذا العصر يقضون مضاجع الامويين في شرق الدولة وغربها ، وكان هـــذا من أهم عوامل انهيار هذه الدولة وسقوطها • هذه لمحة سريعة تضع أمامك صورة مصغرة للحياة السياسية في هذا العصر •

واما الحياة الدينية فقد كان الناس بها على صنفين : قوم شـــغلهم الترف والنعيم واستهوتهم الجواري ، ولعب بعواطفهم الغناء ، وهؤلاء كانوا مستهترين من الوجهة الدينية الى حد ما ، وذلك كعمر بن ابي ربيعة في مكة الذي تجـــاوز باستهتاره التغزل والتشبيب في المرأة الى التغزل والتشبيب في نفسه كقوله :

| | |
|---|---|
| بينمـــا يذكرنني ابصرنني | دون قيد الميل يعدو بي الأغر |
| قالت الكبرى أتعـــرفن الفتى | قالت الوسطى نعم هذا عمـر |
| قالت الصغرى وقد تيمتهـــا | قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟ |

وقد اخذ عليه ذلك ابن أبي عتيق وكان ذواقة للأدب نقادة للشعر فقال حين سمع ذلك لعمر بن أبي ربيعة شببت والله بنفسك ولم تشبب بصاحبتك •

ومثله كان الاحوص في المدينة ، ومن غزله في المرأة قوله :

لقد منعت معروفهـــا ام جعفر وانى الى معروفهـــا لفقـــير

ادور ولولا أن ارى أم جعفر بابيـاتكم مادرت حيث ادور
ادور على ان لست انفك كلمـا رايت عدوا بالبنـان يشير
وما كنت زوارا ولكن ذا الهـوى اذا لم يزر لابد أن سيزور

فان هذين الشاعرين كانا يصوران في الواقع تلك الروح الدينية التي سادت في هذا الوقت تهاون وتسامح كبير ، اضف الى ذلك اقامة بيوت في مكة والمدينة للغناء ، كبيت جميلة وعزة الميـلاء ، وقد وصل التسامح الديني في هذا العصر وعند هذا الصنف من الناس الى درجة أن الخليفة عبد الملك وهو القائم على حماية الدين ، بلغ به التسامح حدا جعله يبيح للأخطل الشاعر المسيحي التغلبي أن يدخل عليه وهو يحمل ابريق الخمر ، كما استطاع الأخطل في بحبوحة هـذا التسـامح الديني أن يهجو الانصار فيقول :

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمـائم الأنصار

وأما ما يروى عن عبد الملك من أنه غضب على الحجاج واشتد عليه حين علم أنه أساء الى أنس بن مالك الصحابي المعروف ، فذلك لم يعد أن يكون من باب التظاهر أمام عامة المسـلمين بالمحافظة على الدين ورجال الدين . كما أنه اراد فيما اعتقد ان يسر منه انس رضي الله عنه ، فيذكره لذلك بالخير أمام المسلمين فترضى عنه العامة .

هذا وصف مختصر لذلك التسامح الديني الذي وجد عند هـذا الفريق من الناس في العصر الأموي ، وأما الفريق الآخر فهم أولئك القوم الذين استشعروا شخصيتهم وآمنوا بوجودهم الذاتي المستقل في تفهم الاشياء وتقدير الأمور ، أعنى أنهم لم يعودوا يتلقون الاخبار السماوية أو القضايا الدينية من غير تفكير ، كما كانت الحال لدى السابقين الأولين الذين غمر الايمان قلوبهم ، وذابت شخصيتهم في الدين ، اذ لم يكن هؤلاء يناقشون الآيات القرآنية ، ولا يفكرون في الأخبار السماوية ، وانما كانوا يتلقون ذلك كله بالايمان والتسليم .

وأما أولئك الذين آمنوا بوجودهم وبأن لهم عقلية مستقلة عن الدين يجب أن تؤدي وظيفتها من التفكير في هذا العـالم ، فهؤلاء هم أهل العقائد ورجال علم الكلام ، وأول مسألة دينية نوقشت هي مسألة مرتكب الكبيرة التي كان الباعث على بحثها والتفكير فيها ظهور الخوارج بعد موقعة صفين اذ كفر هؤلاء الخوارج عليا لارتكابه الكبيرة في اعتقادهم بتحكيمه الرجلين أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، ومنذ ذلك الحين أخـذ المفكرون من المسلمين يناقشون هذه المسألة ، فمنهم من قال ان مرتكب الكبيرة مؤمن عاص كالحسن البصري ومنهم من قال بكفره كالخوارج ، وذهب واصل بن عطاء الى انها منزلة بين المنزلتين ، كما وجد كذلك التفكير

في القدر وفي الكلام من صفات الله ووحدانيته ، وهل الله يشبه المخلوقات أو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٠

وفي هذا الخضم من التفكير تشعبت الآراء واختلفت المذاهب ، ومن ثم تعددت الفرق الاسلامية كالقدرية والمشبهة والمرجئة وأهل الاعتزال وغيرهم كثير ٠

واما الحياة الاجتماعية فقد كانت تختلف من اقليم الى اقليم ، ففي الحجاز وجد الترف والنعيم واتجه الناس الى اللهو والطرب لانهم ورثوا عن آبائهم من الاموال ماجعلهم يحيون حياة البذخ والترف ، هذا بالاضافة الى ما كانت تغدقه عليهم دولة بني أمية من الاموال لتصرفهم بذلك عن التفكير في أمور الدولة وشئون السياسة ، وأما العراق ، وهو موطن العامة أو الطبقة الشعبية العربية ، فقد كانت الحياة فيه قلقة مضطربة لم تكد تهدأ وتستقر – ان هدأت أو استقرت – حتى تموج وتميد وتضطرب من جديد ، فتختلف الآراء وتتعدد المذاهب وتتباين الأهواء وتكثر الفتن ، ولعل السبب في ذلك كله راجع الى سببين رئيسيين أولهما تعدد العناصر البشرية واختلاف الاجناس التي تألف منها مجتمع العراق، اذ كان منهم الآراميون والنبط والفرس والعرب ، وأما الثاني فهو العصبية التي دعا الاسلام الى نبذها ، لكنه لم يستطع ان يمحوها من النفوس لانها كانت عنصرا من عناصر النفس العربية ، وكل ماستطاع الاسلام أن يفعله هو كسر حدتها واضعاف شوكتها وأن يكبتها الى حين، وقد كانت السياسة أهم أسباب عودتها الى الظهور في هذا المجتمع على تلك الصورة التي لم تكن تقل خطرا عما كانت عليه في العصر الجاهلي ، ولا غرو فقد كان خلفاء بني أمية وولاتهم يذكون نار العصبية ويؤججون أوارها وقد ظهرت صورة ذلك واضحة في أدب هذا العصر ، وأكثر ما تجلت ففي تلك القصائد التي تهاجى فيها الفرزدق وجرير والأخطل ، وقد أطلق على تلك القصائد اسم النقائض وقد اضطلع بالنصيب الأوفر في اثارة تلك العصبية لدى أهل العراق بشر بن مروان ، اذ كثيرا ما كان يغري الفرزدق بجرير وجريرا بالفرزدق وغيرهما من الشعراء ٠ وليس له في ذلك هدف ولا غاية سوى اثارة تلك العصبية الهوجاء كي يظل العراقيون في شغل وانصراف عن التفكير في شئون الدولة وأمر الخلافة ، هذا وقد رأى ابن أبي الحديد في شرحه على كتاب «نهج البلاغة» أن سبب تلك الفتن والاختلافات راجع الى ماامتاز به أهل العراق من الفطنة والذكاء ٠ واليك نص ماأورده ابن أبي الحديد في هذا المقام نقلا عن الجاحظ . «العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء ، وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب

الأمراء ، واهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأى واحد لايرددون النظر ولا يسالون عن مغيب الأحوال ، وما زال العراق موصوفا اهـــله بقلة الطاعة وبالشقاق على اهل الرياسة » • اما اهل الشام فلم يكونوا فى الواقع بأقل من أهل الحجاز من حيث الترف والنعيم والتمتع بملذات الحياة ، غير أن وجود الخليفة بين ظهرانيهم من جهة ، ولانهم هم عمـــاد الدولة وعصا الخليفة من جهة اخرى ، فذلك جعلهم يتحلون فى ترفهم ولهوهم بالتحفظ والاحتشـام وقد كثر الغناء والمغنون فى قصر الخليفة وبيوت الأمراء ، ولكن فى تستر واحتشام ، وكان الخليفة يسمع ولـكن من وراء حجاب مبالغة في الاحتشــام وذلك أمر طبيعى لان اكثر العرب كانوا متدينين لايرضون عن الخليفة بل يثورون عليه ويخلعونه لو علموا أنه مســتهتر أو مفرط فى الدين • وقد حدث أن ثاروا فعلا على الوليد ابن يزيد بن عبد الملك وقتلوه لاستهتاره وانتهاكه حرمات الدين ، هــذا وقد كان الناس من جميع أنحاء الدولة يفدون الى الشـام لأنها حاضرتهم ومقر خليفتهم وبالطبع كانت الوفود تخطب بين يدى الخليفة مظهرين له الطاعة والولاء ملتمسين منه العدل والانصاف وحسن المعاملة واطروه ، وربما تملقوه وكذلك كان أهل الشـام انفسهم يتنافسون فى مدح الخليفة وتملقه بالشعر حينا وحينا بالخطب .

هذا هو وصف اجمالى ، وفى ايجاز واقتضـــاب لتلك الاحوال السياسية والاجتماعية والدينية التى كانت تسود الامة الاسلامية فى اثناء حكم الأمويين • وهى فى جملتها تقتضى الخطابة وتبعث عليهـــا ، والأمر الذى لاشك فيه هو أن الخطابة ازدهرت فى هذا العصر وارتقت وظهر خطباء مفلقون من كل فرقة وحزب فى مختلف الأقاليم . فالخوارج والشيعة والسفيانيون ثم الزبيريون والمروانيون ، كل هؤلاء واولئك كانوا يخطبون الناس ويدعونهم الى اعتناق عقيدتهم الدينية ومذهبهم السياسى اضف الى ذلك ظهور رجال التوحيد وعلماء الكلام كالمرجئة والقـــدرية والجبرية والمشبهة والمعتزلة وأهل السلف ، فكل من هؤلاء أيضا كانوا يدعون الى مذاهبهم ويعملون على اثباتها بالحجة والبرهان ويدحضون آراء من خالفهم •

# الفصل الثاني

## أشهر الخطباء في هذا العصر ونماذج من خطبهم

هذا وقد اشتهر من بين كل فرقة وحزب رجال عرفوا ببلاغة القول وفصاحة اللسان وبالروعة والاجادة في الخطابة ، كواصل بن عطــــاء والحسن البصرى من علماء الكلام وأهل العقائد ، وابو حمزة وقطرى بن الفجاءة من الخوارج ، ومن الزبيريين اشتهر خالد بن صفوان ، وأما بنو أمية فقد اشتهر منهم بالخطابة في أثناء حكم البيت السفيانى زياد بن ابيه، وراس هذه الدولة ومؤسسها معاوية بن أبي سفيان ٠

وأما العصر المروانى فقد اشتهر فيه عبد الملك الخليفة الذى كان يشبه معاوية في الحكمة والدهاء وفي بلاغة القول وفصاحة اللســــان ، وكذلك كان من أشهر مشاهير الخطباء في هذا العصر الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان لعبد الملك بن مروان ، كزياد بن ابيه لمعاوية ، اذ أن كلا من هذين الرجلين العظيمين ولى العراق، كما انهما على تشابه كبير في حكمهم لاهل العراق من حيث التسلط والشدة وضبط الامور ، وقبل ان نتكلم على الحجاج وخطبه أرى لزاما على ان أروى خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح قال :

« يأهل الكوفة أترونى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكننى قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم وقد آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ٠ الا ان كل مال او دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين ، ولا يصلح الناس الا ثلاث ؛ اخراج العطاء عند محله واقفال الجنود لوقتها وغزو العدو في داره ، فانه ان لم تغزوهم غزوكم» ٠

فمعاوية السياسى الخطير الذى عرف بلين العريكة وسهولة الجانب قد بدا في هذه الخطبة كما ترى شــديدا قاسيا يكاشف اهــل الكــوفة باستيائه منهم وعدم رضاه عنهم . ولعل هذه الخطبة بما انطوت عليه من روح الحزم والشدة قد الهمت زياد بن ابيه خطبته البتراء او على الاقل كانت أهم عواملها النفسية لان الوالى لايمكن أن يقسو على أهل ولايتــه أو أن يشتد في معاملتهم الا اذا كان يعلم أن الخليفة يرتضيه ٠

وخطبة معاوية دليل مادى على أنه سوف يرضى بل يسر من زياد اذا هو أغلظ لأهل الكوفة القول وعنف التهديد وبالغ فى الوعيد ، وقد روى الجاحظ خطبة زياد فى كتابه «البيان والتبيين» وهاك نص الرواية :

« قال أبو الحسن المدائنى عن مسلمة بن محارب وعن أبى بكر الهذلى قال : قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبى سفيان وضم اليه خراسان وسجستان والفسق بالبصرة كثير فاشى ظاهر ، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها وقال غيرهما بل قال: الحمد لله على افضاله واحسانه ونسأله المزيد من نعمه واكرامه ٠٠ اللهم كما زدتنا نعما فالهمنا شكرا ٠

أما بعد ، فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى باهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيه الصغير ولا يتحاشى عنه الكبير كانكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ماأعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لايزول ٠ اتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون انكم احدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه ، من تركك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ٠

هذه هى المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل ، ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر ، وتغضون عن المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لايخاف عاقبة ولا يرجو معادا ، ماانتم بالحلماء ٠ ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدما واحراقا ٠

انى رأيت آخر هذا الامر لايصلح الا بما صلح به أوله ، لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد او تستقيم لى قناتكم ٠

ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة ٠ فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها فى واعلموا أن عندى امثالها ، من نقب منكم عليه فانا ضامن لما ذهب منه فاياى ودلج الليل

فاني لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد اجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم ، واياى ودعوى الجاهلية ، فاني لا أجد أحد دعا بها الا قطعت لسانه وقد احدثتم احداثا لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن اغرق قوما اغرقناه ومن أحرق على قوم أحرقناه ومن نقب بيتا نقبنا على قلبه ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه فكفوا عني أيديكم والسنتكم اكفف عنكم يدى ولساني ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه ، وقد كانت بيني وبين أقوام احن فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن اساءته ، واني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ولم اهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل ذلك لم أناظره فاستأنفوا اموركم واعينوا على انفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس ٠

ايها الناس انا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ٠

واعلموا انى مهما قصرت فلن اقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن ابانه ولا مجمرا لكم بعثا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى اليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل ، واذا رايتموني انفذ فيكم الأمر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي» ٠

فخطبة زياد هذه كما ترى ضخمة طويلة، ضمنها زياد السياسة التى اعتزم انتهاجها فى أهل العراق ، فهى بمثابة الخطب الحكومية التى يلقيها رئيس الدولة في البرلمان يضمنها السياسة الداخلية والخارجية التى سارت عليها الحكومة في العام المنصرم وستسير عليها فى العام المقبل فخطبة زياد من هذا اللون ، اذ تكلم فيها عما سيفعله او ياتيه فى ولايته من الاعمال ، وقد امتازت خطبة زياد هذه بظاهرة جديدة لم يعهدها الناس من قبل عند خليفة أو وال او امير ، واعنى بتلك الظاهرة ادعاءه أن الله اختص بنى أمية بالحكم والسلطان ، أى انه لايجوز لأحد أن ينازعهم فيه لان الله هو الذى أعطاهم الملك ومنحهم السلطان ، وذلك اخذا من قوله : «أيها الناس انا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله

الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا » .

وقد كانت هذه الظاهرة سائدة فى بلاد الفرس اذ كانوا يقدسون كسرى ولا يجيزون لانفسهم بحال من الاحوال أن ينازعوه السلطان . ومن اهم ماامتازت به خطبته التهديد والشدة والوعيد والقسوة حتى لكأنها بما انطوت عليه من كل ذلك تشبه الصخور يقذف بها الخطيب وجوه السامعين .

# الفصل الثالث

## الحجاج بن يوسف الثقفي

### مولده - نشأته - نسبه - سيرته

ولد الحجاج في وقت سكنت فيه النفوس واستقرت الامور وهدات الاحوال ، اذ كان الحسن بن علي قد نزل عن حقه في الخلافة وبايع بهـا معاوية ،وبهذا اصبح الناس قاطبة يدينون بالولاء والطاعة لخليفة واحد هو معاوية بن ابى سفيان ٠

في هذا الهدوء وذلك الاستقرار حبا الحجاج ودرج ٠ ولكنه لم يكد يقوى ويشتد ويبلغ الأشد حتى رأى الأمور تمور والاحوال تضطرب ، اذ قامت الثورات وكثر الخارجون ، وعادت الفرقة ورجع الانقسام وأوشكت دولة الأمويين أن تزول ، فهؤلاء أهل المدينة يخرجون على يزيد ولـــكن جيشه انتصر عليهم في موقعة الحرة ٠ ثم استباح المدينة ثلاثة ايام ٠ والحسين بن علي يذهب الى العراق بناء على دعوة أهله ليبايعوه ، لكنهم خذلوه فقتل في كربلاء ثم خرج ابن الزبير فغلب على مصر والحجازواليمن والعراق ، ولم يبق للأمويين الا بلاد الشام ٠ شاهد صاحبنا الحجاج ذلك كله فلم يطق العزلة ولم يرض أن يظل يعلم الصبية في الطائف حيث البعد عن الحرب والقتال . كيف يرضى ذلك الحجاج وهو القائد المطبـــوع المفطـور على حب القتـــال والولع بالحـــرب . فلحق بجنـــد عبد الملك وانخرط في شرطة روح بن زنباع ، وهنا عرفه التاريخ السياسي حيث يقص علينا كيف اتصل بعبد الملك ، اذ يروى المؤرخون أن زفر بن الحارث والى الأمويين على قنسرين خرج على مروان بن الحكم ، فلما آل الامر الى عبد الملك وبايعه اهل الشام اراد أن يخرج العـــسكر لقتال زفر ، فرأى عبد الملك في عسكره تخاذلا وعصيانا ، اذ كانوا لاينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله فشكا ذلك عبد الملك الى روح بن زنبـــاع أحد اعوانه المخلصين فدله على الحجاج وقال له ياأمير المؤمنين ان في شرطتي رجلا لو ولاه امير المؤمنين امر عسكره لأرحلهم برحيله وانزلهم بنزوله يقـال له الحجاج بن يوسف ، قال عبد الملك فانا قد قلدناه ذلك ، فكان لايقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول الى اتباع روح بن زنباع فوقف الحجـاج عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون ، فقال ما منعـــكم أن ترحلوا برحيل امير المؤمنين فقالوا له انزل فكل معنا يابن اللخناء ٠ فقال هيهات ذهب ماهنالك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وامر بخيام روح بن زنباع فأحرقت بالنار فدخل روح بن زنباع

على عبد الملك بن مروان باكيا فقال له مالك قال ياأمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى .

قال عبد الملك : على به .

فلما دخل عليه قال له : ماحملك على مافعلت ؟ قال : ماأنا فعلته ياأمير المؤمنين . قال : ومن فعله ؟ قال : أنت والله فعلت . انما يدى يدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين ان يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له . فاخلف عبد الملك لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أول ماأعجب عبد الملك فيه ، وقد آثرت ذكر هذه القصة بجملتها كما هى فى كتب التاريخ لانها تبين لنا فى وضوح تام كيف استهل الحجاج حياته السياسية وكيف بدا اتصاله بالأمويين ، وفوق ذلك فانها تصور لنا ما امتاز به الحجاج من حدة الذكاء واللباقة وقوة العارضة ووضوح الحجة ثم الحزم والمضاء والتصلب فى الحق ، أو ما يراه صوابا وينبغى عمله لما يؤدى اليه من الضبط والاحكام فى الامور . وقد برزت تلك الصفات وتجلت فى حياة الحجاج فيما بعد ذلك فى أثناء توليه أمر الحجاز واليمن ثم العراق وفارس والأهواز كما سوف نراه فيما سيأتى من كلامنا عن الحجاج .

هذا وقد ولاه عبد الملك فيما بعد قتال ابن الزبير . ويروى المؤرخون أن الحجاج جاء عبد الملك ذات يوم فقال ياأمير المؤمنين انى رأيت فى المنام انى أسلخ ابن الزبير فولنى قتاله ، فاجابه الى ذلك عبد الملك ، وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أم لا ، فالأمر الذى لاشك فيه هو أن عبد الملك انس من الحجاج الكفاية والدهاء والقدرة على ضبط امور الجيش واحكام خطط القتال ، وانه يجيد فن الحرب ، فاطمأن الى أنه سوف يهزم ابن الزبير فولاه قتاله ، فلما انتصر الحجاج كافأه عبد الملك بأن ولاه أمر الحجاز ثم اليمن واخيرا العراق . وذلك بعد أن مات اخوه بشر بن مروان فضبط الحجاج الامور فى العراق وقمع الثورات وهزم الخوارج وتوسع فى الفتوحات ونقل ديوان الخراج من الفهلوية الى العربية ، كما اهتم بالزراعة والرى وغير ذلك من الامور الداخلية فى العراق .

بعد هذا الوصف الاجمالى لحياة الحجاج السياسية نفصل القول فى نسبه وحسبه وقصة مولده ، كما نحاول ان نرسم له صورة توضح شخصيته كحاكم لأهم أجزاء الدولة الاسلامية .

**نسبه ومولده :**

اختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها الحجاج فمنهم من قال هى سنة تسع وثلاثين هجرية ، ومنهم من قال سنة أربعين . وقد قال

آخرون انها سنة احدى وأربعين · وقد رجحت دائرة المعارف الاسلامية هذا الرأى الأخير . وقد نسجت الحكايات والأساطير حول ولادة الحجاج . فقد ذكر انه ولد مشوها ، فابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » يذكر فى هذا الصدد ما نصه : « ويذكر أنه ولد ولا مخرج له حتى فتق له مخرج وانه لم يرتضع أياما حتى سقوه دم جدى ثم دم سالخ ولطخ وجهه بدمه فارتضع ، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء لانه أول من ارتضع ذلك الدم الذى لطخ به وجهه » ، وقد ذكر هذا ونحوه كثير من المؤرخين ومن بينهم ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان واخبار ابناء الزمان » . وهم جميعا انما ينقلون ذلك عن « مروج الذهب » للمسعودى ، الذى وصف مولد الحجاج وذكر قصة زواج امه بأبيه فى اسهاب · واليك نص راوية المسعودى نقلا عن « كتابه مروج الذهب » :

قال : « وكانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة . فدخل عليها فى السحر فوجدها تتخلل فبعث اليها بطلاقها فقالت لم بعثت الى بطلاقى ، اشىء رابك فى ؟ قال نعم دخلت عليك فى السحر وانت تتخللين، فان كنت بادرت الغذاء فانت شرهة وان كنت بت والطعام بين اسنانك فانت قذرة ؛ فقالت كل ذلك لم يكن ولكنى تخللت من شظايا السواك ، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفى ابو الحجاج فولدت له الحجاج بن يوسف مشوها لا دبر له فثقب عن دبره وابى أن يقبل ثدى امه وغيرها فأعياهم امره ، فيقال ان الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة فقال ما خبركم فقالوا ابن ليوسف من الفارعة وكان اسمها ، وقد أبى ان يقبل ثدى امه ، فقال : اذبحوا جديا اسود واولغوه دمه، فاذا كان فى الثانى فافعلوا به كذلك، فاذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا اسود واولغوه دمه ثم اذبحوا له اسود سالخا فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فانه يقبل الثدى فى اليوم الرابع . قال ففعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر على سفك الدماء لما كان منه فى بدء امره ، هذا وكان الحجاج يخبر عن نفسه ان اكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب امور لا يقدم عليها غيره ولا سبق اليها سواه » .

واما صاحب العقد الفريد ، فقد ذكر ان الفارعة ام الحجاج كانت زوجا للمغيرة بن شعبة وانه طلقها للسبب السالف الذكر نفسه ، ولكنه يذكر ان المغيرة ندم حين تبين له بطلان ماطلقها من اجله واسف اسفا شديدا ، ثم لقى يوسف بن الحكم بن عقيل فقال له هل لك الى شىء ادعوك اليه ، قال وما ذلك قال نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فانها تنجب لك فتزوجها فولدت له الحجاج .

هذا ومن الطبيعى الا يخلو مولد رجل عظيم كالحجاج بن يوسف

من غرابة ونسج حكايات خيالية ، أو هو على الاقل لم يخل من تجسيم الواقع والمبالغة فيه . فان الأخبار التى وصلت الينا عن مولد الحجاج نقلت فى جملتها عن مروج الذهب للمسعودى ، وهو غير دقيق فى اخباره ، ولم يكن يتحرى الصواب ويتلمس أصوب الطرق واصدق الروايات فيما ينقل ، بل كان يروى كل ماوصل الى سمعه أو وقع عليه بصره دون ماتقد ولا تمحيص ، وقد رماه ابن خلدون فى مقدمته بالجهل، اذ قال عنه انه لم يكن عارفا بهذا العلم - يريد علم التاريخ ، وأغلب الظن ان حكاية الشيطان ورواية الدم تلك قد اختلقوها على الحجاج ليستطيعوا تفسير شدته وقسوته وفرط حبه لسفك الدماء ، كما هو الراى السائد عند جميع المؤرخين ، والفكرة المختمرة فى اذهان الناس عن الحجاج منذ عصره حتى وقتنا هذا . ولم يكن الحجاج وحده الذى نسج المؤرخون حوله الحكايات الغريبة ورووا عنه الاخبار العجيبة ، بل رأينا كثيرا من امثاله صورهم المؤرخون فى مولدهم بمثل ماصوروا لنا الحجاج .

فهذا تيمورلنك — مثلا — قد ولد فيما يذكر المؤرخون ويداه مخضبتان بالدماء . فالذلك أصبح ، كما زعموا ، سفاكا فظيعا يبنى منازل من جماجم قتلاه .

## نسبه :

ذكر ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » نسب الحجاج فقال هو الحجاج بن يوسف بن عقيل بن مسعود بن عامر بن معقب بن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف ، وهو قس بن منبه بن بكر ابن هوازن أبو محمد الثقفى ، ومعنى هذا ان ابن كثير يرجح أن ثقيفا من قيس عيلان وأما ابن خلكان فقد روى خلافا فى نسب ثقيف الى اياد اذ قال بعد أن انتهى الى قس وهو ثقيف قال ذكره ابن الكلبى فى جمهرة النسب ، وقال ولد منبه بن النبيت قيسا وهو ثقيف فيما يقال فمن ينسب ثقيفا الى اياد فهذا هو نسبهم ومن نسبهم الى قيس فيقول : قس بن منبه بن بكر بن هوازن .

واما المبرد فقد روى خلافا أكبر واوسع من الخلاف الذى ذكره ابن خلكان ، اذ قال فى كتابه «الكامل» فى هذا الصدد ما نصه : ويقال ان النخع وثقيفا اخوان من اياد ، فأما ثقيف فهو قس بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، فهذا قول قوم ، واما آخرون فيزعمون أن ثقيفا من بقايا ثمود ، ثم يروى لنا المبرد بعد ذلك ما يدل على أن الحجاج كان ينكر هذه النسبة ويكرهها ويستاء ممن يلوح أو يومىء اليها أمامه . اذ يذكر المبرد أن الحجاج قال يوما لأبى العسوس الطائى أيها أقدم؟ انزول ثقيف الطائف ام نزول طىء

الجبلين ؟ فقال ابو العسوس ان كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيء الجبلين قبلها ، وان كانت ثقيف من ثمود فهي اقدم ، فاستاء الحجاج وغضب ثم قال يا ابا العسوس اتقني فاني سريع الخطفة للاحمق المتهون .
ويذكر المبرد في موضع آخر من كتابه أن الحجاج قال يوما على المنبر تزعمون أني من بقايا ثمود . والله عز وجل يقول « وثمود فما أبقى » .
فالحجاج اذن قد نفى نسبة ثقيف الى ثمود ، واستدل على ذلك بالقرآن لانه اخبر في الآية المذكورة أن ثمودا أبيدت ودرست وعفى عليها الزمن ولم يبق لها باقية على الاطلاق ، ومهما يكن من شيء فان ثقيفا كانت تضارع قريشا أو تقاربها في المكانة والشرف بين العرب . وكانت الطائف وهي موطن ثقيف احدى القريتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن حيث قال تعالى في سورة الزخرف « حكاية عن قريش » .

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

والمراد بالقريتين هما مكة والطائف ، والمقصود بالرجل العظيم عروة بن مسعود الثقفي ، وهو جد الحجاج بن يوسف وقد قال بعض القرشيين – حين أراد أن يعتذر اليهم عن قلة ما وصلهم به – اذن والله لانعذرك وانت أمير العراقين وابن عظيم القريتين ، وهذا اشارة الى الآية السابقة . هـذا وقد كان ابو الحجاج ، يوسف بن الحكم مقربا لدى معاوية ، مجاب الرجاء . يدل على ذلك ماذكره ابن عساكر في ترجمته لسليم بن عنز التجيبي قاضي مصر ، حيث ذكر ان الحجاج كان مع ابيه بمصر في جامعها فاجتاز بهما سليم بن عنز هذا فنهض اليه ابو الحجاج فسلم عليه وقال له اني ذاهب الى امير المؤمنين فهل من حاجة لك عنده ، قال نعم تساله ان يعزلني عن القضاء . فقال سبحان الله ، والله لا اعلم قاضيا اليوم خيرا منك ، وهذا يدل على عظيم مكانة اسرة الحجاج وعلو شانها في الجاهلية والاسلام .

**نشأته :**

نشأ الحجاج كغيره من ابناء المسلمين يحفظ القرآن ويروى الحديث ، وقد تعلم الرماية وركوب الخيل حتى درجة الاجادة ، ويقال انه اشترك في صباه في عدة معارك ، ومن بينها معركة الحرة التي هزم فيها جيش يزيد اهل المدينة ، اذ يقال ان الحجاج قد فر هو وابوه هاربين من المعركة لما حمي وطيسها ، وقد عيره بذلك بعض الناس بعد ان عظم شانه .

وقد كان الحجاج أول حياته يعلم الصبية القرآن الكريم وقد ذكروا ان اخاه وأباه قد امتهنا هذه المهنة ، وقد روى المبرد في كتابه «الكامل» مايؤيد ذلك ويجعلنا نصدق انه كان يعلم الصبية القرآن حقا ، لأن

المبرد ، وان كان من رواة الأدب ، الا انه ثقة فيما يرويه ، الامر الذى يجعلنا نعتمد عليه فيما نحن بصدده من تاريخ الحجاج والترجمة انه ، قال فى الجزء الثانى من كتاب الكامل مانصه :

وممن هرب من سجن الحجاج مالك بن الريب المازنى وفى ذلك يقول :

فان تنصفونا يا آل مروان نقترب ··· اليكم والا فأذنوا ببعاد
فان لنا عنكم مراحا ومزحلا ··· بعيش الى ريح الفلاة صوادى
ففى الارض عن دار المذلة مذهب ··· وكل بلاد أوطنت كبلادى
فما ترى الحجاج يبلغ جهده ··· اذا نحن جاوزنا حفير زياد
زمان هو العبد المقر بذله ··· يراوح صبيان القرى ويغادى

ويعقب المبرد على ذلك فيقول : قال ذلك لأن الحجاج كان هو واخوه معلمين بالطائف ، ويروى شعرا آخر فى ان لقبه كان كليبا وانه كان صغير الخطر فى بلده :

اينسى كليب زمان الهزال ··· وتعليمه سورة الكوثر

وما رواه المبرد من الشعر للتهوين من شأن الحجاج كان شعرا فى الهجاء ، فهو موضع للاتهام لا يعتد به . والمبرد نفسه يقص عليناىعد ذلك بقليل أنه كان عظيم النسب كما تقدم ، وكفاه ان جده لامه كان عروة بن مسعود الثقفى الذى هو عظيم القريتين على ماتقدم ذكره .

فليس الحجاج اذن حقيرا ولا وضيع النسب ، بل كان عظيما فى نفسه شريفا فى نسبه . وأما تعليمه القرآن وتعيير الناس له بذلك فهو أمر يزيد فى عظمة الحجاج فيما اعتقد ، وليس بالأمر الذى يجوز الناس ان يهجوه من اجله ، لان حفظة القرآن ومعلميه كانوا وما زالوا حتى يومنا هذا يعظمون ويبجلون ، وخصوصا فى ذلك العصر الذى عاش فيه الحجاج اذ كان بعض الصحابة لا يزالون على قيد الحياة ، اعنى أن الاهتمام بالقرآن والعناية به كانا على اشدهما وان من يحفظون القرآن ويعلمونه يقدرهم المجتمع الاسلامى حين ذاك ، ويكن لهم كل اجلال وتعظيم . واما كون بعض الناس قد هجوه بذلك فلعله راجع الى فرط استيائهم من الحجاج وحنقهم عليه ، والذى يكره انسانا يرى حسنه قبيحا ولا عجب ، فقد قال الشاعر وقوله مثل سائر وحكمة بالغة :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ··· كما ان عين السخط تبدى المساويا

ومما وصلنا من اخبار حداثة الحجاج ، انه كان ذا رأى فى نسبة زياد بن أبيه الى أبى سفيان ، وان ابن زياد حقد عليه من أجل ذلك وقد ظهر هذا الحقد حين اختصم الحجاج اليه فى أول ميراث بينه

وبين عروة بن المغيرة بن شعبه . فقد امر بضرب الحجاج اسواطا على راسه . وقد كان الحجاج فى تلك المرحلة من عمره شديد الغيرة يكره من محمد النميرى ان يقول شعرا فى اخته زينب ، وانه سبه من اجل ذلك وشتمه ، على انه لم يكن قد اساء القول فيها وانما كان شعره رقيقا عفيفا لامساس فيه بالشرف مطلقا ، واليك الشعر الذى قاله النميرى يشبب بزينب اخت الحجاج :

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت ... بــه زينب فى نسوة عطرات

يخبئن اطراف البنان من التقى ... ويخرجن شطر الليل معتجرات

هذا ما استطعنا العثور عليه من اخبار صحيحة حول نشأة الحجاج وفى سن حداثته .

اما بعد ان اتصل بعبد الملك بن مروان حيث ظهر الحجاج على مسرح الحياة السياسية وعظم شانه فى الدولة الأموية ، فان أخباره كثيرة واعماله عظيمة وسيرته واسعة غصت بها كتب التاريخ وحفلت بها كتب الأدب . هذا على ان المبرد كان اكثر رجال الادب عناية بأمر الحجاج . وقد روى لنا المبرد فى كامله من اخبار الحجاج ما يوضح سيرته ويعين على تفهمها على وجه صحيح . وهى اخبار متفرقة فى تضاعيف كتابه ، وهى فى اكثرها مقتضبة يذكرها استطرادا او لادنى مناسبة ، ولكنه يذكر لنا خبرا مطولا نسبيا عن أخلاق الحجاج وسيرته آثرت أن انقله بنصه : « ويقال كان الحجاج اذا استغرب ضحكا والى بين الاستغفار وكان اذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ثم تكلم رويدا فلا يكاد يسمع ثم يتزيد فى الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها اقصى من فى المسجد ، وكان يطعم فى كل يوم على الف مائدة . على كل مائدة ثريد وجنب من شواء وسمكة طرية ويطاف به فى محفة على تلك الموائد يتفقد امور الناس وعلى كل مائدة عشرة ، ثم يقول يا اهل الشام اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم ، وكان له ساقيان احدهما يسقى الماء والعسل ، والآخر يسقى اللبن . ويروى ان ليلى الاخيلية قدمت عليه فانشدت :

اذا ورد الحجاج أرضا مريضة ... تتبع اقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العقام الذى بها ... غــلام اذا هز القناة ثناها

فقال لها لا تقولى غلام بل قولى همام ، ثم قال لها أى نسائى أحب اليك ان أنزلك عندها الليلة ؟ قالت : ومن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : ام الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية ، وهند بنت اسماء بن خارجة الفزارية وهند بنت المهلب بن أبى صفرة العتكية فقالت : القيسية احب الى ، فلما كان الغد دخلت عليه فقال : يا غلام أعطها خمسمائة ،

فقالت : أيها الامير اجعلها ادما فقال قائل : انما أمر لك بشاه قالت: الامير اكرم من ذلك . فجعلها ابلا اناثا استحياء وانما كان أمر لها بشاه أولا .

فهذا يدل على مدى كرم الحجاج وسخائه وهى صفة طالما امتدحها العرب ومدحوا بها أمراءهم وسادتهم ، وادل شيء على كرمه قوله : البخل على الطعام اقبح من البرص على الجسد . كما ان استغفاره اذا استغرب ضحكا دليل على تحشمه وحسن تدينه . ومما يدل على استقامة خلق الحجاج وتجنبه الفواحش ما يروى عنه انه لم يكن من عادته معاقرة الخمر ولم يشرب النبيذ الذى كان اهل العراق يشربونه ، بل كان ينهاهم عنه ، يدل على ذلك ماروواه المبرد حيث قال : وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وفدة وفدها عليهوقد اكلا : هل لك فى الشراب ؟ قال : يا امير المؤمنين ليس بحرام ما احللته ولكنى امنع اهل عملى منه واكره ان اخالف قول العبد الصالح « وما اريد أن اخالفكم الى مانهاكم عنه » ، فهذا معناه أن الحجاج كان متدينا ورعا لا يرتكب المعاصى ، فاذا كان الوليد وهو خليفة المسلمين قد اباح لنفسه شرب الخمر ، فان الحجاج وهو أحد عماله لا يجترىء عليه بالنهى او الردع وانما يستطيع ان ينكر ذلك عليه بلطف ولباقة كما فعل الحجاج اذ قال للوليد حين طلب اليه ان يعاقره الشراب : يا امير المؤمنين ليس بحرام ما أحللته الى آخره ، وهذا غاية فى التدين والورع، واما سلوكه تجاه الناس كحاكم او وال عليهم فقد صوره لنا المبرد أصدق تصوير حيث ذكر أن الحجاج قال لوجهاء أهل الكوفة بعد أن خطبهم تلك الخطبة التى سوف نذكرها فى موضعها . قال لهم ما كانت الولاة تفعل بالعصاة ؟ فقالوا كانت تضرب وتحبس ، فقال الحجاج ولكن ليس لهم عندى الا السيف . ان المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ولو ساغت المعصية لاهلها ماقوتل عدو ، ولا جاء فىء ولا عز دين . ثم جلس لتوجيه الناس فقال ، قد اجلتكم ثلاثا واقسم بالله لا يتخلف أحد من أصحاب ابن محنف بعدها ولا من اهل الثغور الا قتلته ، ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطه ، اذا مضت ثلاثة ايام فاتخذا سيوفكما عصيا ، فجاءه عمير بن ضابىء البرجمى بابنه ، فقال اصلح الله الامير ان هذا انفع لكم منى هو اشد بنى تميم بدا واجمعهم سلاحا واربطهم جاشا وانا شيخ كبير عليل واستشهد بجلسائه فقال الحجاج ان عذرك لواضح وان ضعفك لبين ولكنى اكره أن يجترىء بك الناس على وبعد فانت ابن ضابىء صاحب عثمان ثم امر به فقتل فاحتمل الناس وان احدهم ليتبع بزاده وسلاحه ، ففى ذلك يقول ابن الزبير الأسدى :

أقول لعبد الله يوم لقيته ... أرى الأمر أمسى منصبا متشعبا

لخير فاما ان تزور ابن ضابىء عميرا واما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج اشهبا
فما ان ارى الحجاج يغمد سيفه يد الدهر حتى يترك الطفل اشيبا
فاضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق او هى اقربا

ومعنى هذا ان الناس قد امتلأت قلوبهم رعبا من الحجاج فلم يعودوا يتلكئون ولا يتخاذلون عن لحاق بجيش المهلب بن ابى صفرة الذى كان يقاتل الخوارج فى فارس وخراسان والاهواز ، اذ اصبح احدهم لا يرى مناصا من احدى اثنتين ، اللحاق بجيش المهلب حيث يقاتل الخوارج ، فاما ان يقتل او يقتل ، ولكنه على كل حال ليس يائسا من الحياة ، واما الثانية فهى ان يقتل بسيف جند الحجاج وعسكره كما قتل عمير بن ضابىء .

ثم ذهب الى البصرة وكان الناس قد هابوه وخافوا سطوته لما سمعوه عن فعله بأهل الكوفة فأتاه رجل من بنى يشكر وكان شيخا كبيرا أعور وكان يجعل على عينه العوراء صوفة فكان يلقب ذا الكرسفة فقال اصلح الله الامير ان بى فتقا وقد غدرنى بشر وقد رددت العطاء فقال انك عندى لصادق ثم أمر به فضربت عنقه ، ففى ذلك يقول كعب الاشقرى او الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج بالبصر ضربة تقرقر منها بطن كل عريف

فهذا يفسر لنا ما أجمع عليه الأدباء والمؤرخون من ان الحجاج كان حاكما ظالما وواليا طاغية فتاكا عاتيا محبا لسفك الدماء يقتل لأتفه الأسباب . وقد احصى بعضهم الاشخاص الذين قتلهم الحجاج فى ولايته بمائة وخمسين الف رجل وثلاثين الف امراة وهذا خبر فى جملته مبالغ فيه الى حد كبير بل استطيع أن اقول انه محض اختلاق لأن هذه الارقام لا يسيغها العقل ولا يرتضيها جنان فى مثل ذلك الوقت الذى كان يعيش فيه الحجاج حتى ولا يمكن أن يتصور فى عصرنا هذا مع عظم الفرق بين عددنا فى هذا العصر وعدد الناس فى عصر الحجاج . اذ مما لاشك فيه ان الناس حين ذاك كانوا اقل منا بكثير ، ومع هذا فاننا لم نجد قطرا من الاقطار بلغ مساجينه مثل ذلك العدد مهما عظم البطش واشتد الظلم ، والحق فى هذه المسألة ان يقال ان الحجاج حاكم حازم استطاع ان يراب صدع الدولة الاسلامية ويعيد لها وحدتها وان يجعل الناس يدينون بالطاعة والولاء لخليفة واحد كما كانوا فى عصر معاوية . وذلك بعد ان عصفت بالدولة الاسلامية اعاصير الفرقة ومزقتها انواء المطامع والأهواء واختلاف المذاهب والآراء .

فالحجاج هو ذلك الرجل الذى ثبت الأمن ووطد النظام فى

العراق ، ذلك القطر المضطرب الثائر مهد التشاحن والتخاصم وموطن التنازع فى ذلك الحين ، وقد استطاع الحجاج أن يتخذ من العراق قوة اعتمدت عليها الدولة فى محاربة الخوارج ، اذ جندهم الحجاج بعد ان ولى العراق بثلاثة ايام فقط وأرسلهم مددا الى المهلب بن ابى صفرة حيث كان يقاتل الخوارج فى الأهواز وفارس وكان العراقيون من قبل معول هدم لا معول بناء وكانوا عاملا من عوامل اضعاف الدولة الاموية لا سببا من اسباب قوتها كما صاروا بعد ذلك ايام ولاية الحجاج ، هذا على أن الحجاج كان اكبر عامل من عوامل اتساع الرقعة الاسلامية واقوى دعامة فى استمرار الدولة العربية وامتداد سلطانها الى بلاد الاندلس ، اذ لولا الحجاج لظل شرق الدولة الاسلامية مضطربا هائجا مائجا لا يستقر على حال ، الأمر الذى كان يؤدى الى اضعاف الدولة واضمحلالها ، ولو كان الأمر كذلك لما استطاعت الدولة الاسلامية أن تمتد من نهر السند شرقا والى ماوراء جبال البرانس غربا ، ولكن الحجاج القائد العظيم والوالى الحكيم استطاع أن يهدىء الثورات ويسكن الأحوال فى الحجاز والعراق وفارس والأهواز مما أتاح للوليد إبن عبد الملك أن يمد قائده موسى بن نصير بالرجال والعتاد والاموال حتى استطاع هذا القائد المظفر بمعونة مولاه طارق بن زياد أن يفتح الاندلس وان يفرغ من فتحها الا جزءا يسيرا منها فى مدة لم تزد على ثلاثة اعوام . وقد تم ذلك والحجاج لايزال على قيد الحياة . واكثر من هذا فان الحجاج هو الذى توسع فى شرق الدولة الاسلامية اذ ارسل محمد بن قاسم على راس جيش الى الهند ففتحها حتى نهر السند وكذلك اتم قائده قتيبة بن مسلم فتح اقليم ما وراء النهر حتى بخارى وسمرقند . هذا وانى ارجح أن السياسة العليا لدولة بنى العباس قد ادت دورا كبيرا فى تجسيم مساوى الحجاج وتشويه سمعته وابرازه الى الناس على صورة ذلك الجبار الطاغية سفاك الدماء كما اعتقد أن العراقيين قد اختلقوا على الحجاج ونسبوا اليه ابشع الأعمال زورا وبهتانا لان العراقيين كانوا يكرهون الأمويين ويتشيعون لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، هذا على أن الدين الاسلامى قد اباح القتل اذا كان فى سبيل استتباب الأمن واستقرار الأمور وتثبيت الحكم والمحافظة على السلطان ، فعمر بن الخطاب قد أوصى حين اغتاله ابو لؤلؤة أوصى رحمه الله المسلمين بأن يأخذوا برأى الأغلبية ويقتلوا المخالفين من اولئك الستة الذين جعل امر الخلافة فيهم يبايعون واحدا منهم . وكان غرض عمر من ذلك المحافظة على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم على خليفة واحد اتقاء للفرقة وحذرا من تلك الانقسامات الحزبية والسياسية التى ظهرت اثر مقتل عثمان . وعمر صحابى جليل كان اكثر الناس فهما للقرآن وتمشيا مع روح الدين . والقصد من هذا ان اقول ان

الحجاج حين قتل - مثلا - ذلك الرجل الذى خرج يبحث عن ضالته ويقال انها كانت بقرة ، ولم يكن قد علم بأن الحجاج قد حجر على الناس الادلاج بالليل ، فلم يقبل الحجاج عذره وانفذ فيه القتل قائلا : « انى لأعلم أنك صادق ولكنى ارى فى قتلك صلاح هذه الامة » . فهذا يدل على أن الحجاج لم يكن ليقتل احدا الا لاعتقاده أنه يؤدى الى جمع الكلمة ولم شعث الأمة ومحق الخلافات وبتر المنازعات والانقسامات وفى ذلك مافيه من حفظ كيان الدولة وتوطيد بنيانها ، وهو عمل يرضى عنه الله ولا عجب فان الحجاج كان يدين بالولاء والطاعة فى اخلاص تام للخليفة الأموى لاعتقاده انه خليفة الله فى ارضه ، فمن اطاعه فقد اطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله كما كان يعتقد أن الخليفة معصوم عن الزلل وانه افضل خلق الله قاطبة لأنه خليفة رب العالمين أعنى ان الله اختصه بالخلافة دون سواه والا لما نصره على من عاداه ، يدل على ذلك قوله فى احد كتبه الى عبد الملك :

( لعبد الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين المؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل الفعل ) هذا وقد حدث الشيبانى عن الهيثم عن ابن عباس قال : كنا عند عبد الملك بن مروان واذ اتاه كتاب الحجاج يعظم فيه امر الخلافة ويزعم انه ما قامت السموات والارض الا بها وان الخليفة أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وذلك ان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم أهبطه الى الارض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلا اليه فاعجب عبد الملك بذلك. وهذا الخبر على فرض صحته وسلامته من الطعن والتجريح يدل على فرط اخلاص الحجاج للخليفة وتفانيه فى طاعته واشتداده وقسوته على أولئك الخارجين على عبد الملك المخالفين لطاعته ، وحق للحجاج أن يقسو ويشتد فى بطشه وتنكيله بالخارجين على امير المؤمنين ، لأن الدين الاسلامى لايبيح خلع الخليفة ولا يجيز الخروج عليه الا اذا أمر بمعصية او حكم بغير ماأنزل الله ، وعبد الملك لم يأمر بمعصية ولم يحكم بغير ما انزل الله وكل عمل عمله او عمل اتاه كان فى سبيل الدفاع عن النفس لأنه كان خايفة وكان يخشى أن يعصف الثائرون بدولته ويبطشوا به وبأسرته ، ولو انهم قدروا عليه لساموه واسرته سوء العذاب ونكلوا بهم أشد التنكيل كما فعل بهم العباسيون حين انتصروا عليهم فى موقعة الزاب بين الشام والعراق ، فان التاريخ يحدثنا عن مدى بطش العباسيين بالأمويين وأهل الشام ومبلغ تنكيلهم بهم وقسوتهم عليهم وذلك على صورة من البشاعة والفظاعة تجعلنا نأسى على الأمويين ونأسف لهم ونرثى لحالهم فى امتعاض وألم برغم ما بيننا وبينهم من بعد الزمان واختلاف الاحوال ، هذا على أن الذين كتبوا ذلك التاريخ انما كتبوه فى ظل الدولة العباسية الأمر الذى يجعلنا نتقبل تلك الانباء اذ لم يكن

للأمويين عليهم سلطان حتى يحملوهم على تشويه حكم بنى العباس ، بل العكس الذى حصـــل اذ ان تاريخ الأمويين كتب فى عصر العباسيين مما يجعلنا نرجع ان بنى العباس عملوا جهدهم على تشويه تاريخ بنى اميــة كما انهم اتخذوا من الحجاج صورة وضخموها لا لتشويه الحجاج نفسه فحسب ، ولكن ليشوهوا تاريخ بنى امية بوجه عام .

هذا على ان القسوة على الثائرين والتنكيل بالخارجين على خليفة المسلمين قد شرعه الدين ونص عليه القرآن الكريم حيث قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض » . والمقصود بهذه الآية هم الثائرون المنشقون الخارجون على أمر الخليفة . فالحجاج اذن كان يتمثل هذه الآية حين اشتد على اهل العراق وقسا عليهم لأنهم كانوا يخالفون أمر الخليفة ويتخاذلون عن قتال الخوارج الذين كانوا بخروجهم ذلك يعيثون فى الارض فســادا .

واذن فما كان الحجاج يقسو على احد فى اعتقــادى الا لأســـباب ومبررات تجعل قسوته وشدته الدواء الناجع والعلاج الشــافى للدولة مما يبيته لها خصوم الأمويين وما كانوا يحيكونه من مؤامرات او يطلعون به من مكائد وثورات ، فهو حين قسا على الموالى لم يقس عليهم الا لانهم خلعوا طاعة عبد الملك وبايعوا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهاك الدليل على ماذهبت اليه وهو ما رواه المبرد حيث قال : وكان الذى اعتدبه الحجاج بن يوسف على سعيد بن جبير لما اتى به اليه بعد انقضاء أمر ابن الأشعث وكان سعيد عبدا لرجل من بنى اسد بن خزيمة فاشـــتراه سعيد بن العاص فى مائة عبد فأعتقهم جميعا فقــال له الحجاج يا شقى ابن كسير اما قدمت الكوفة وليس يؤم بها الا عربى فجعلتك اماما ؟ قال بلى ، قال أما وليتك القضاء فضج اهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء الا لعربى فاستقضيت ابا بردة بن موسى الاشعرى وامرته الا يقطع امرا دونك ؟ قال بلى . قال : أو ما جعلتك فى سمارى وكلهم من رءوس العرب؟ قال بلى ، قال : اوما اعطيتك مائة الف درهم لتصرفها فى اهـل الحاجة ثم لم اسالك عن شىء منها ؟ قال بلى ، قال : فما اخرجك على ؟ قال بيعة كانت لابن الاشعث فى عنقى ، فغضب الحجاج ثم قال أفما كانت بيعة امير المؤمنين عبد الملك فى عنقك ؟ والله لأقتلنك ، يا حارس اضرب عنقه . ونظر الحجاج فاذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالى فأحب ان يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ويخلطهم بأهل القرى والانباط فقال : انما الموالى علوج وانما اتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم ، فامر بتسـيرهم من الامصار واقرار العرب بها وامر ان ينقش على يد كل انسان منهم اسم قريته .

وتعليل المبرد لمـــا اتخذه الحجاج من تفريق الموالى وارجاعهم الى

قراهم بانه اراد أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ، تعليل لا يقنع المؤرخ وان ارتضاه المبرد كرجل من رجال اللغة والادب ، اذ هو يفسر الأشياء بما يتفق وصناعته ، اما أنا فأعتقد أن الحجاج لم يفعل ما فعله بالموالى من التفريق والتشتيت الا ليأمن خطرهم ويتقى شرهم فانهم لو بقوا مجتمعين فى مكان واحد لفكروا من جديد فى الانتفاض على الدولة والخروج على أمير المؤمنين ، ومهما يكن من أمر فان قصة الحجاج مع الموالى دليل على أنه لم يكن يقسو ويشتد الا على أولئك الثائرين المخالفين الشاقين عصا الطاعة على خليفة المسلمين ٠

هذا وانى أعتقد ان الحجاج لم يكن مجردا من الرحمة ، مشربا قلبه ظلما وجورا كما هو راى أكثر الناس فيه ، بل كان يعدل ويرحم ، وآية ذلك ما حكاه ابن الاثير فى ترجمته للحجاج اذ قال : قيل كتب عبد عبد الملك الى الحجاج يأمره بقتل أسلم بن عبد البكرى لشىء بلغه عنه ، فاحضره الحجاج فقال : امير المؤمنين غائب وأنت حاضر والله تعالى يقول ( يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ) والذى بلغه عنى باطل فاكتب الى أمير المؤمنين انى أعول أربعا وعشرين امرأة وهن بالباب ، فلما تبين للحجاج صدق الرجل ولم يكن فى قتله مصلحة للدولة ، كتب الى عبد الملك كتابا الغرض منه أن يعدل الخليفة عن قتل أسلم بن عبدالبكرى لانه يعول اسرة كبيرة من جهة، ولانه لم يأت مايستوجب قتله؛ فارسل اليه عبد الملك يقول : اذا كان الأمر كما ذكرت فأحسن اليه ٠

وظنى أن اعداء الحجاج قد جسموا كل التجسيم أعماله التى اظهروها بمظهر الشدة والقسوة والظلم والجور والبطش الذى لا يكاد يوجد له نظير أو مثيل ، ولا اريد أن ابسط القول فى هذا ، فقد سبق أن بينت فى شىء من التفصيل ان أعداء الحجاج وبخاصة أعداء بنى أمية بصفة عامة افتروا على الحجاج وشوهوا سيرته ، ولكنى أكتفى هنا بان اقول ان اعداء الحجاج لم يقتصروا فى تشويههم سيرته عند هذا الحد ، بل ذهبوا الى ما هو أكثر من ذلك واخطر اذ نسبوا اليه الكفر وسوء الاعتقاد فهذا المبرد يقول : ومما كفرت به الفقهاء الحجاج بن يوسف قوله والناس يطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنبره ، انما يطوفون باعواد ورمة ٠

وهذا التكفير كما ترى بين البطلان ولسنا فى حاجة الى التدليل على فساد ذلك الراى ومجانبته ومخالفته لواقع الامر ، فان الحجاج هو الذى تعلم القرآن وعلمه ، وهو الذى كان يجيد قراءته ويحسن تلاوته ، يدل على ذلك قول ابن عوف فيما رواه ابن كثير فى أثناء ترجمته للحجاج قال : « كنت اذا سمعت الحجاج يقرأ عرفت انه طالما درس القرآن » وهو الذى حفظ القرآن من اللحن وجنبه عبث الالسنة ، اذ أمر بنقط

القرآن لما سمع لحن الناس فيه وقد ذكر لنا قصة ذلك ابو احمد العسكرى اذ قال فى كتاب ( التصحيف ) : ان الناس اخـــذوا يقرءون فى مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه اربعين سنة ونيفا الى أيام عبـــد الملك ابن مروان ، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادا وازواجا وخالف بين اماكنها ·

ومن ينعم النظر فيما تناقلته الكتب وروته الاخبار عن الحجاج وسيرته نيوافقنى على القول بأن الحجاج برغم ماعرف به من الشدة والقسوة وما رمى به من البعد عن الدين واتهم به من العصـــيان والفجور فى حكمه ، انه برغم ذلك كله ينطوى على نفس بشرية تحس وتنفعل كغيرها من بقية نفوس البشر المتدينة ، فكان الحجاج يخاف الله ويخشى عقابه ، بل كان أكثر من ذلك يخوف الناس مما يخافه هو ويخشاه يدل على ذلك مارواه المبرد فى كتابه الكامل واليك النص : قال الحجاج : « ان امرأ اتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه أو يستغفر من ذنب أو يفكر فى معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة » ·

هذا وقد كان رقيق القلب يبكى من خشية الله فيبكى من حوله ، وروى ابن الاثير عن مسلم بن قتيبة انه قال خطبنا الحجاج فذكر القبر فما زال يقول انه بيت الوحدة وبيت الغربة وبيت كذا وكذا حتى بكى وابكى، ومعنى هذا أنه كان شديد الخوف من الله حسن المعرفة به وبقدرته وانه ذو عاطفة دينية رقيقة وانه صادق فى تأثره والا لما استطاع أن يبكى من حوله لان البكاء الصادر عن العاطفة المنبعث من القلب يؤثر فى السامعين الى درجة انه يحملهم على المشاركة الوجدانية فيبكون ·

وقد روى أحاديث كثيرة عن انس وسمرة بن جندب وابى بردة بن ابى موسى ، كما سمع ابن عباس رضى الله عنهم ،وروى كذلك عن عبد الملك، ومما رواه عنه قول عثمان بن عفان فى احدى خطبه : « مانظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قبر أو ذكره الا بكى » · وقد ذكر ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية أنه روى عن الحجاج أنس بن مالك وثابت البنان وحميد الطويل وغيرهم ، وذكر ابن عساكر أنه كان للحجاج بدمشق دور منها دار الرواية وهذا يدل على عظم عناية الحجاج برواية الحديث ·

**وفـــاته :**

وبعد فقد عاش الحجاج نيفا وخمسين عاما قضى اكثر من نصـــفها يعمل سبيل الدولة الأموية ، فهو الذى قتل ابن الزبير الد اعداء عبدالملك واشدهم خطرا على دولته ، ثم هو الذى اخضع العراق وهزم الخوارج

وبالجملة فالحجاج هو الذى وطد ملك المروانيين وأعاد للدولة الاســلامية وحدتها بعد أن كادت تعصف بها المطامع السياسية والاهواء المذهبية على ماسبق أن فصلناه • هذا وقد كان لموت محمد أخى الحجاج ، وابنه محمد فى يوم واحد اثر كبير فى ضعف جسم الحجاج وانهيار اعصابه الى درجة انه توقع دنو أجله • يدل على ذلك قوله فى جوابه على تعزية الوليد اياه بذلك ، يا أمير المؤمنين ما التقيت أنا ومحمد كذا وكذا سنة الا عاما واحدا وما غاب غير غيبة أنا لقرب اللقاء فيها ارجى من غيبته هذه فى دار لا يتفرق فيها مؤمنان •

وقد ذكر ابن خلكان وفاة الحجاج فوصف مرضه وقال مانصه :

« وكان مرضه بالاكلة وقعت فى بطنه ، ودعا بالطبيب لينظر اليها فاخذ لحما وعلقه فى خيط وسرحه فى حلقه وتركه ساعة ثم أخرجه وقــد لصق به دود كثير ، وسلط الله عليه الزمهرير فكانت الكوانين تحمــل حوله مملوءة نارا وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لايحس بها •

وشكا مايجده الى الحسن البصرى فقال له : قد كنت نهيتك أن تتعرض الى الصالحين فلججت • فقال له : ياحسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني • ولكن أسالك ان تسأله أن يعجل قبض روحى ولا يطيل عذابى فبكى الحسن بكاء شديدا واقام الحجاج على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يوما وتوفى فى شهر رمضان ، وقيل فى شوال سنة خمس وتسعين للهجــرة وعمره ثلاث ، وقيل أربع وخمسون سنة وهو الاصح •

هذا وقد قال الطبرى فى تاريخه الكبير « توفى الحجاج يوم الجمعــة لتسع بقين من شهر رمضان سنة خمس وتسعين » •

وقال ابن خلكان لما جاء خبر موت الحجاج الى الحسن البصرى سجد لله تعالى شكرا وقال « اللهم انك قد امته فامت عنا سنته » وكان ينشد قبيل وفاته هذين البيتين وهمــا لعبيد بن سفيان العلكى من البسيط :

يارب قد حلف الأعداء واجتهــدوا
ايمانهم اننى من ســـاكنى النــار

ايحلفــون على عمياء ويحهـــم
ماظنهم بعظيم العفـــو غفــار

وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وحفر قبره وأجرى عليه الماء وذلك كى لايعبث الناس به انتقاما لما لحقهم من ضرر وايذاء من الحجــاج فى أثناء حكمه لهم وتسلطه عليهم ، وعندى أن المؤرخ المنصف يخرج من دراسة سيرة الحجاج وتتبعها بالحكم على انه كان حاكما حازما ذا كفاية بارعا فى الادارة والتنظيم •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو متدين يخاف الله ويخشى عقابه ويحاول أن يرضيه فيما يفعله أو يأتيه ، غير أن الحجاج كان ذا شخصيتين متميزتين في الحقيقة والمفهوم ، متحدتين في الواقع والمظهر ، فقد كان حاكما سياسيا وكان واعظا دينيا وهما شخصيتان تختلفان في الذهن والاعتبار ، ولكنهما تتحدان في الواقع والوجود الخارجي فالحجاج هو محل هاتين الروحين أو مناط ذينك المظهرين ، وقد يزول العجب وتذهب الغرابة اذا ماعلمنا أن الدين الاسلامي لم يكن يفرق بين السلطة السياسية والسلطة الدينية كما عرفنا ذلك في المسيحية في أثناء العصور الوسطى .

# الفصل الرابع

# خطب الحجاج

عرفنا فيما أوجزناه من عرض لحياة الحجاج وما رسمناه من صورة لشخصيته أنه كان رجلا يرى من وجهين أو يبدو على مظهرين :

الاول : كونه حاكما أو واليا لبنى مروان في أوسع أقاليم الدولة الاسلامية حين ذاك وأعظمها خطرا ٠

الثانى : ذلك الرجل المتدين سليم الاعتقاد الراوية للحديث والدارس للقرآن الذى يخاف الله ويخشى عقابه ، ويخيف منه الناس الى درجة أنه يبكيهم من خشية الله ٠ فلذلك كانت خطابته على نوعين ٠ خطابة سياسية وأخرى دينية ٠

وسنبدأ باستعراض ما ثبتت نسبته اليه من خطبه السياسية ثم نذكر خطبه الدينية ، وبعد ذلك نجمل خصائص الخطابة عنده وما امتاز به عن غيره من الخطباء ٠

**خطبته بعد مقتل ابن الزبير :**

وجم الناس وسادهم حزن شديد حين علموا بمقتل عبد الله بن الزبير اذ هو حبر هذه الامة كما ورد بذلك الحديث الشريف ، وأبوه الزبير بن العوام الذى قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام : لكل نبيّ حوارى ، وحواريى الزبير . وكان الحجاج يعرف ذلك تمام المعرفة فخطب الحجاج يهون من أمر ابن الزبير ويخفف وطأة مقتله الأليم على النفوس ، وقد نقل هذه الخطبة صاحب جمهرة خطب العرب عن كتاب سرح العيون ، وقد بحثت عنها فى مروج الذهب والكامل فى التاريخ لابن الاثير ، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ، فلم أجد أحدا من هؤلاء ذكرها أو رواها فكدت أغفلها ، اذ أن كتابا واحدا فقط يرويها لا يكفى فى صحة نسبتها الى الحجاج ، لولا أنى وجدتها فى كتاب « البداية والنهاية » لابن كثير ، وهاكها كما رواها نصا قال : « أيها الناس ان عبد الله بن الزبير كان من أخيار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازعها أهلها وألحد فى الحرم فأذاقه من عذابه الاليم وان آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير وكان فى الجنة وهى أشرف من مكة ، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التى

نهى عنها أخرجه الله من الجنة ، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله . وقيل انه قال : يا أهل مكة بلغنى اكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير فان ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الدنيا ونازع الخلافة أهلها فخلع طاعة الله وألحد فى حرم الله ، ولو كانت مكة شيئا يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء ، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه الى الأرض ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير وان كان ابن الزبير غير كتاب الله .

فهو كما ترى ذكرها بروايتين مختلفتين ، والثانية عندى أرجح ، اذ أنها تتفق فى اللفظ والمعنى الى حد كبير مع رواية كتاب سرح العيون ، ومهما يكن من شىء فان هذه الخطبة تشتمل على أدلة عقلية وحجج منطقية قصد بها الحجاج اقناع الناس بحل ما ارتكبه بقتله ابن الزبير وانه لم يفعل غير ما أباحته الشريعة وجوز فعله الدين . فابن الزبير ابن حوارى رسول الله وأحد العبادلة الأربعة ، وأنه من أخيار هذه الأمة غير أنه خرج على خليفة المسلمين ، والخروج معصـية عقابها القتل ، وبها عاقب الحجاج ابن الزبير كما عاقب الله آدم وهو ابو البشر وأول النبيين باخراجه من الجنة حين خالف وأخطأ بأكله من الشجرة التى حرمها الله عليه . وليس ابن الزبير بأكرم على الله ولا أفضل عنده من آدم ، كما أن الكعبة ليست أعظم حرمة عند الله من الجنة . وهذا كما ترى تبرير منطقى يقنع العقل ويهدىء العاطفة ويسوغ لدى النفوس فعلة الحجاج .

ونلاحظ أيضا على الحجاج من هذه الخطبة أنه تجنب الشدة وقصد الى الملاطفة وأراد المواساة ، وذلك كى لا تزداد النفوس كراهية وتمتلىء غيظا وحمقا على الحجاج ومن ثم على خليفته عبد الملك ، وذلك غاية فى الحكمة . لانه ينبغى للحجاج بعد أن ظفر بابن الزبير ان يتألف الناس ويجمعهم راضين غير ناقمين على بيعة عبد الملك والاذعان له بالطاعة والولاء . أما من حيث الأسلوب فاننا نلحظ عليه الجودة والمتانة وحسن السبك واستقامة التعبير ، فلا غموض ولا التواء ولا ابهام ولا تعقيد ، وأما الالفاظ فهى سهلة سلسلة جزلة متخيرة منتقاة لا ينبو بعضها ببعض ، وليس بين الفاظها كلمة قلقة لوضعها فى غير موضعها ، لا بل كل كلمة وضعت حيث ينبغى أن توضع .

**خطبته فى اهل الكوفة لما ولى العراق :**

قد اختلفت طرق هذه الخطبة وتعددت رواياتها ، وما من مؤرخ أو معنى بالأدب فى عصر بنى امية الا ذكر هذه الخطبة . فالمسعودى يذكر بعد حكايته لتولية عبد الملك المهلب بن أبى صفرة محاربة الخوارج فى

العراق ، ان المهلب أخفق فى حرب الخوارج وانه ارسل الى الخليفة يطلب منه المدد وبعد هذا يقول المسعودى ما نصه : « فخرج عبد الملك الى اصحابه فقال : ويلكم من للعراق ؟ فسكت الناس وقام الحجاج وقال أنا لها ، قال اجلس ثم قال ، ويلكم من للعراق ، فصمتوا وقام الحجاج وقال انا لها ، قال : اجلس . ثم قال : ويلكم من للعراق فصمتوا وقام الحجاج الثالثة فقال : والله انا لها يا امير المؤمنين . قال : أنت زنبورها ، فكتب اليه عهده . فلما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقيلوا وان يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قتب ، فجلس عليه بغير خشبة ولا وطاء ، واخذ الكتاب بيده ولبس ثياب السفر وتعمم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده وجعل ينادي: الصلاة جامعة، وما منهم رجل جالس فى مجلسه الا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر من ذلك من اهله ومواليه ، وصعد المنبر متلثما متنكبا قوسه فجلس واضعا ابهامه على فيه ، فقال بعضهم لبعض قوموا حتى نحصبه ، قال له بعض أهل بيته : أصلحك الله أكفف عن الرجل حتى نسمع مايقول فمن قائل يقول حصر الرجل فما يقدر على الكلام ، ومن قائل يقول أعرابى ما أبصر حجته . فلما غص المجلس بأهله حسر اللثام عن وجهه ثم قام ونحى العمامة عن رأسه فوالله ما حمد الله ولا أثنى عليه ولا صلى على نبيه وكان أول ما بداهم به أن قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا        متى اضع العمامة تعرفونى

الى آخره . .

هذا وانى أستصوب رواية المبرد عن غيرها ، لأن المبرد ثقة فيما يروى دقيق فيما ينقله من الخطب والرسائل والأشعار . واليك نص روايته لهذه الخطبة ، كما هى فى كتابه « الكامل » قال : وحدثنا فى اسناد ــ ذكر آخره عبد الملك بن عمير الليثى قال :

بينما نحن فى المسجد الجامع بالكوفة ، واهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه ، اذ أتى آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق فاذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمير بن ضابىء البرجمى الا احصبه لكم ؟ فقالوا امهل حتى ننظر ، فلما راى عيون الناس اليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا        متى أضع العمامة تعرفونى

ثم قال : يا أهل الكوفة أما والله انى لأحمل الشر بحمله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، وانى لأرى ابصارا طامحة واعناقا متطاولة ورؤوسا

قد أبدعت وحان قطافها واني لصاحبها ، وكاني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق ، ثم قال :

هـذا أوان الشـد فاشتدى زيم قـد لفهـا الليل بسـواق حطم
ليس بـراع ابل ولا غنـم ولا بجزار على ظهر وضـم

ثم قال :

قـد لفهـا الليل بعصـلبى اروع خـراج من الـدوى
مهاجر ليس باعرابى

ثم قال :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجـدت الحرب بكم فجـدوا
والقـوس فيهـا وتر عـرد مثل ذراع البكر أو أشـد
لابد مما ليس منه بد

انى والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوى الاخلاق ما يقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت الى الغاية القصوى وان أمير المؤمنـين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى لانكم طالما اوضعتم فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغى • اما والله لالحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ولاعصبنكم عصب السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل ، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقهـا الله لباس الجـوع والخوف بما كانوا يصنعون ، واني والله لا أعد الا وفيت ولا أهم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت فاياى وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيم انتم وذاك أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده • وان أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم اعطياتكم وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابى صفرة وانى اقسم بالله لا اجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا سفكت دمه وانهبت ماله وهدمت منزله •

فهو فى خطبته هذه ، يختلف تمام الاختلاف عنه فى خطبته التى القاها فى مكة اثر مقتل ابن الزبير » ففيها كان يحاول اقناع أهل مكة بأن ابن الزبير الذى كان من احبار هذه الأمة او هو من خيارها قد خالف العهد بمنازعته الخليفة فى الأمر وادعائه الاحقية به دونه ، الأمر الذى استحق به عقوبة القتل •

فالحجاج اذن لم يرتكب جرما ولم يفعل اثما ، بل أتى أمرا يجيزه الدين وتبيحه شريعة الاسلام · وقد احتج على ذلك بأدلة دينية واضحة وحجج عقلية مقنعة ، وهو بعد يتخير ألفاظ خطبه بحيث تلائم في وقعها ووضوحها وجزالتها واستوائها ذوق المكيين ، وما كانوا عليه حين ذاك من تحضر ورقي ، لا في اللغة والأدب فحسب ، ولكن في الحياة بوجه عام .
ثم هو قد استهل خطبته تلك بحمد الله والثناء عليه وختمها بقوله قوموا الى الصلاة يرحمكم الله · فبينما هو في مكة على ماوصفت ، اذا به في العراق يقسو ويشتد ويغلظ ويزمجر وينذر ويهدد ويتوعد الناس بالبطش والتنكيل والعقاب الشديد والعذاب الأليم · ثم ان خطبته هذه لهي أشبه شيء بشريط سينمائي يعرض علينا مناظر حية وصورا متحركة للحجاج وواقع سيرته في أهل العراق من جهة ، وموقف العراقيين وسلوكهم ازاء الولاة والحكام من جهة أخرى · وأول صورة تطالعنا في خطبة الحجاج تلك ما يعطيه هذا القول ، وهو ما استفتح به خطبته اذ قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

فانك ترى من خلال هذا القول شخصية قوية جبارة عظيمة البطش شديدة القسوة مرهوبة مهيبة تملأ رؤيتها قلوب الناس رعبا ، ثم ترى ذلك الحاكم على صورة مجسمة واضحة المعالم وهو يعاقب المذنبين ويؤدب المفسدين اذ يقول : يا أهل الكوفة أما والله اني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، ثم هو يصور لنا أهل العراق على الحالة التي وجدهم عليها حين جاءهم واليا عليهم من تحفزهم للثورة وتأهبهم للمخالفة وشق عصا الطاعة فيقول : واني لأرى ابصارا طامحة واعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها ·

ثم انظر الى هذه الصورة الحية التي تعبر أصدق تعبير عن مدى بطش الحجاج بأهل العراق وتنكيله بهم وسفكه دماءهم اذ يقول : وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق . ثم انظر اليه كيف يصف نفسه ويرسم لشخصيته صورة هي أكثر دلالة على ذاته من تلك الصور التي تلتقطها عدسة المصور لمختلف الأشخاص ، لا بل انها صورة رسام بديع - فيقول :

هذا اوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى ابل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

فهو يتراءى لنا من خلال هذا القول وهو يسوق خلف الناس وهم أمامه منساقون على هيئة راع يسوق غنمه ، لا بل على صورة أضخم وأبشع فالراعي لايبطش بغنمه بل يرفق بها ، والأغنام تنصاع وتذعن وتنساق في استسلام لراعيها راضية مطمئنة لانه عودها ان يسوقها اما

لبيتها أو لمرعاها . أما الحجاج فانه يسوقهم الى مايكرهون الى المهلب ابن ابى صفرة حيث النزال والطعان والحرب والقتال ، وهم حين ينساقون ، ينساقون كارهين غير مطمئنين الى المصير .

فليس هو اذن كما قال براعى ابل ولا غنم . لا ولكنه حاكم قوى شديد ذو قسوة ، وليس يسوق غير الرجال ، ثم هو جزار قصاب ولكن للآدميين وهذه صورة غاية فى الترهيب والتهويل . وجملة القول فى هذه الأبيات - التى تمثل بها الحجاج - أنها حافلة بصور حية متحركة تعبر اصدق التعبير عما ساد العراق فى اثناء حكم الحجاج من وضع أو حال كان قوامه شدة الحجاج وقسوته وقوته وبطشه من جانب ومخالفة العراقيين وانشقاقهم من جانب آخر ، ثم هو بعد هذا التهديد والارهاب والتخويف والارعاب الذى استهل به كلامه وقدم به خطبته يعود فيخبرهم بأن امير المؤمنين قد أرسله واليا عليهم ، وهو الخبر الذى كان ظاهر الحال يقتضى ان يبدأ الحجاج به كلامه بعد حمد الله ، ولكنه لم يحمد الله وانما هدد وتوعد وملأ قلوب الناس رعبا أولا وفى بدء الكلام ، على نحو ماقدمت ، ولكنه حين أخبرهم بتوليته عليهم سلك أيضا طريقا جديدا واتخذ أسلوبا غريبا لم يعهده أهل العراق من قبل ، اللهم الا شيئا منه أو بعضه فيما يسمعونه أو يروونه عن زياد بن أبيه . فعبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها فوجد الحجاج أمرها عودا واصلبها مكسرا ، فرمى به اهل العراق . وقد بين الحجاج لأهل العراق السبب الذى اختاره من أجله عبد الملك واليا على العراقيين ، وهو القوى الصلب مر المذاق اذ يقول « لأنكم طالما أوضعتم فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغى » ، لذلك استحقوا أن يولى عليهم رجلا قويا قاسيا شديد البطش كالحجاج . ثم هو بعد ذلك يعرض عليهم صورا من ذلك التعذيب والتنكيل الذى سوف يلقونه منه اذا هم تمادوا فى طغيانهم واقاموا على ما هم عليه من التخاذل والتشاحن والخروج على امير المؤمنين فيقول « أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

اما الأسلوب ، فهو كما ترى اسلوب خطابى مستقيم راعى فيه الحجاج المقام ومقتضى الحال ، والبلاغة كما يقولون هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وحال العراقيين كما عرفنا فيما اسلفت حين ذاك يتطلب الحزم والشدة ولا يناسبه من الكلام الا ما كان قويا غليظا به عنف وشدة ، ثم ان هذه الخطبة تالفت من مقدمة ، وهى الأشعار التى استفتح بها الحجاج وموضوع وهو اخباره فيما بعد أهل العراق بأنه جاءهم واليا عليهم ، ثم

ذلك التهديد والوعيد وتلك الجمل التى رسم فيها الحجاج سيرته التى يعتزم انتهاجها فى أهل العراق ثم أنهى خطبته بخاتمة دعا فيها العراقيين الى أن يأخذ كل منهم سلاحه وان يستعدوا جميعا الى اللحاق بجيش المهلب . وبعد ، فان الخطبة فى مقدمتها وموضوعها وخاتمتها متماسكة مترابطة يجانس بعضها بعضا .

**الفاظ الخطبة :**

اما الألفاظ فهى فظة خشنة بها غلظة وجفاف ينبو عنها سمع المتحضرين وتمجها آذانهم ويأباها ذوقهم . فالقعقعة بالشنان والعصلبى وسواق حطم كلها الفاظ تلائم جو الصحراء ويستسيغها ذوق البادية ، وليست هذه الألفاظ التى ذكرتها وحدها هى الخشنة بل ان الخطبة فى جملتها من اولها الى آخرها قد سادتها الخشونة والغلظة فى الألفاظ والشدة والقسوة فى الجمل والعبارات .

## خطبته لما قدم البصرة

ورد ذكر هذه الخطبه فى كتاب « صبح الأعشى » ونهاية الارب » وسرح العيون » ولم يذكرها أحد من المؤرخين الذين رجعت الى كتبهم كابن عساكر وابن كثير والمسعودى وابن خلكان وابن الأثير . وبرغم هذا فانى آثرت ان اذكرها لأمرين احدهما أن الخطبة تتفق فى روحها ومعناها ولفظها وجملها ولحسن خطابها الى حد كبير مع روح واسلوب والفاظ وطريقة التعبير ، او بعبارة أخرى فى الطابع العام الذى عرفنا به خطبته التى القاها حين قدم الكوفة . وهو أمر يدعو الى روايتها ويبعث على قبول نسبتها الى الحجاج .

اما المبرر الثانى لذكرى اياها فهو ان الحجاج قد قدم البصرة بعد أن صرف الأمور فى الكوفة على الوجه الذى يرضاه ، وانه لابد أن يكون قد خطب اهل البصرة كما خطب من قبل اهل الكوفة وهو امر منطقى يستوجب العقل حدوثه ، والا فانه لا يمكن ان يتصور بحال من الأحوال أن يدخل الحجاج البصرة صامتا لا يخطب ولا يتكلم ومهما يكن من أمر فانى مورد هذه الخطبة كما هى فى كتاب « نهاية الأرب » نصا . قال النويرى :

قيل لما قدم البصرة خطب الناس فقال :

أيها الناس من أعياه داؤه فعندى دواؤه . ومن استطال اجله فعلى أن اعجله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله . ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه . ان للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا . فمن

سقطت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه . اني انذر ثم لا انظر واحذر ثم لا اعذر واتوعد ثم لا اعفو ، انما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه . ان الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي ، فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني . والله لآمر احدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه الا ضربت عنقه .

وكأني بالحجاج حين دخل البصرة ، تذكر سلفه زياد بن أبيه ، واستعاد في قرارة نفسه خطبته البتراء فأراد أن يحيك خطبته في أهل البصرة على غرارها وينسجها على منوالها فقصر وأوجز ولم يقل غير الانذار والتهديد والارهاب والوعيد ، وكبر الفرق بين الخطبتين مصدره بعد مابين الخطيبين من المكانة والجاه والخطر . فزياد بن أبيه استعمله عمر بن الخطاب وتوسم فيه الفطنة والنجابة والذكاء ثم استلحقه معاوية واثبت بنوته لأبي سفيان ، وهذا يفسر لنا سر قول زياد ايها الناس انا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا .

فزياد يستشعر شخصيته ومكانته وخطره اذ هو أخو الخليفة ـ وان كان عن سفاح لا عن نكاح ـ الا أن الاستلحاق قربه من معاوية واخوته له كما لو كان اخاه من نكاح شرعي ، واما الحجاج فهو ثقفي من أهل الطائف ، ومهما شرفت ثقيف وعظمت مكانتها فانها لم تكن لتداني قريشا لا في الجاهلية ولا في الاسلام . فالحجاج اذن لم يكن ليشعر بقربه من الخليفة مهما قربه منه أو ادناه ، كذلك الشعور الذى وجدناه لدى زياد . فالحجاج لا يمت الى بني امية لا في نسب ولا مصاهرة ، انما هو رجل توسم فيه عبد الملك الكفاية والجدارة بما ولاه اياه ، ثم اخلاصه للخلافة وتفانيه في خدمة المروانيين . ولولا هذا ما كان عبد الملك ليستعمله .

كان الحجاج يعرف ذلك ويقدره كل التقدير . ولهذا لم نجد الحجاج حين خطب أهل البصرة ينسب السلطان لنفسه ، أو بعبارة اخرى يستشعر أنه احد أفراد بيت الخلافة كما فعل زياد . بل قال أيها الناس ، من أعياه داؤه فعندى دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله .. الى آخره .

فهو لهذا يصف نفسه بالقسوة والصرامة والحزم والمضاء ، وانه لجندى قوي مخلص لعبد الملك بن مروان يمتثل أمره ويحقق قوله وينفذ رغبته . وهذا الاحساس الذى نلمسه لدى الحجاج يختلف تماما عن

الاحساس الذى وجدناه عند زياد . فالحجاج يشعر بانه جندى من جنود عبد الملك ، واما زياد فانه كان يشعر وهو يخطب شعور الخليفة ، أو على الأقل شعور أحد الأمويين .

هذا على أن خطبة الحجاج هذه على مابها من ايجاز — ان صح أنها هى هكذا كما القاها لم يدخلها حذف ولا اختصار أو لم تتعرض لآفة النسيان — فهى تزخر بصور كلها حركة وكلها حياة قد أراد بها الحجاج أن يقنع الناس بأنه قوى شديد عظيم البطش لا قبل للمراقبين به ، ولا مندوحة لهم من الانقياد له والاذعان لأمره حتى لو انه أمر أحدهم أن يخرج من باب بعينه من ابواب المسجد ، فان عليه ان ينفذه بكل دقة ، فلو انه خالف ادنى مخالفة بان خرج من الباب الذى يليه فان ادنى عقوبة واخف عقاب يلقاه من الحجاج سفك دمه وهدم منزله . وله بعد هذه الخطبة خطب كثيرة بين قصيرة وطويلة، اختلفت رواياتها وتعددت طرقها، فلذلك اراها فى حاجة الى جهد كبير لتمحيصها وتحقيقها حتى نستطيع ان نتبين الصواب او الصحة فيما نسبه اهل اللغة والأدب وفيما عزاه اليه المؤرخون . لذلك فانى رايت أن أورد الخطب التى ساذكرها بعد ، دون أن أذكر المراجع أو الكتب التى روتها مكتفيا بذكرها اجمالا فى الثبت الذى سوف أذكر فيه مصادر هذا البحث .

## خطبته وقد سمع تكبيرا فى السوق

لما كان اليوم الثالث من دخوله الكوفة خرج من القصر فسمع تكبيرا فى السوق فراعه ذلك . فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوى الأخلاق ، وبنى اللكيعة وعبيد العصا واولاد الاماء والفقع بالقرقر انى سمعت تكبيرا لا يراد الله به وانما يراد به الشيطان ، الا انها عجاجة تحتها قصف وانما مثلى ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمدانى :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم ... فهل انا فى ذا يالهمدان ظـــالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميـــا تجتنبك المظالم

وهو فى هذه الخطبة لم يقتصر على التهديد والانذار والوعيد بل سب أهل العراق وشتمهم وأقذع فى نعتهم ، ثم ختمها بتأهبه التام للقضاء على كل محاولة يريدون بها المخالفة او يبغون بها الفتنة .

## خطبته بعد وقعة دير الجماجم

وقد خطب أهل العراق بعد أن انتصر على ابن الأشعث في موقعة دير الجماجم فقال : يا أهل العراق . ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ثم افضى الى المخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم اسلام أو ينفعكم بيان ، ألستم أصحابي بالاهواز ؟ حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته . وانا ارميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا ، وتنهزمون سراعا ؟ ، ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية . بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم اذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها النوازع الى أعطانها . لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوى الشيخ عن بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح ثم يوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم . بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهب الخليل عن خليله . يا أهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الختراث والنزوات بعد النزوات . ان بعثتكم الى ثغوركم غللتم وخنتم وان امنتم أرجفتم وان خفتم نافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو او استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع الا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه .

يا أهل العراق . هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر الا كنتم أتباعه وانصاره ؟ . يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ ، ألم تزجركم الوقائع ؟ . ثم التفت الى اهل الشام وهم حول المنبر فقال : يا أهل الشام انما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب .

يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء » .

فهذه الخطبة قد اشتملت على صور غاية في الابداع الفنى ، وهى من طراز خطابى جديد لم نعهده في خطابة خطيب عربى تقدم الحجاج أو عاصره ، فقد استهلها الحجاج بتلك الصورة البديعة التى أخرج فيها المتخيل او المعقول مخرج الملموس أو المحسوس ، اذ عبر عن بغى العراقيين وتأصل الفساد فى نفوسهم بقوله يا اهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ، ثم افضى الى المخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا .. الى آخره ..

ولعمرى أن هذا التشبيه الذى اخرجه مخرج التمثيل لهو ابلغ وصف واروع تعبير يمكن أن يصور فسادا مستحكلا ومجورا متاصلا كذلك الذى كان فى نفوس العراقيين ابان ذاك الحين - ثم ينتقل بعد هذه المقدمة الى موضوع الخطبة وهو ذم العراقيين والانحاء عليهم باللائمة فى تخاذلهم وتقاعسهم عن مقاتلة ابن الاشعث الى جوار الحجاج · لا بل انهم عملوا على هزيمة الحجاج ونصرة ابن الاشعث ، وقد ارجع الحجاج ذلك كله الى ماأشربته نفوس العراقيين من الشقاق والنفاق والمخالفة والمشاحنة والعبث فى الارض بشتى ضروب الفساد وكانت عباراته فى التعبير عن ذلك كله غاية فى الروعة وبلاغة التصوير · ثم هى جمل قصيرة شديدة الوقع كأنما هى قطع من جلمود صخر حطه السيل من عل · كان الحجاج يقذف بهـا وجوه العراقيين فى قسوة وعنف وهى بعد تزخر بالجناس والطباق والتشبيهات والاستعارات وشتى أنواع البديع كقوله يا أهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الختراث ، فهذا كله جناس وان كان من نوع الجناس الناقص .

ثم أنظر الى قوله بعد هذا ان بعثتكم الى ثغوركم غللتم وخنتم وان امنتم أرجفتم وان خفتم نافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ·

فهذا كما ترى جمع بين معان متقابلة وهو ما يعرف فى علم البديع باسم الطباق ثم ان هذه الالفاظ على مابها من تقارب فى الحروف واختلاف فى الاشتقاق فهى برغم هذا متجانسة متقاربة فى الجرس والموسيقى ثم يختم الحجاج خطبته بمثل ما بداها به من التشبيه والتصوير وضرب المثل الحسى كى تصح الصورة الذهنية ويتجلى الأمر المعقـول فيقول : يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنهـا المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب · يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وانتم العدة والحذاء ·

فهو كما ترى قد عبر بصورة هى من ادق الصور واروعها عن مدى حدبه على أهل الشام وحبه لهم وذوده الشر عنهم ثم عن مدى استعانته بهم على الاعداء وقضائه بهم على الشرور والفتن · وفيما اوردت من خطب الحجاج السياسية ما يكفى لتصوير قدرته على الخطابة فى هذا الميدان · والآن استعرض بعض خطبه الدينية ··

## خطبه الدينية

وخطب الحجاج يوما فقال :

ايها الناس · قد اصبحتم فى اجل منقوص ، وعمل محفوظ ، رب دائب مضيع وساع لغيره ، والموت فى اعناقكم ، والنار بين ايديكم والجنة

امامكم خذوا من انفسكم لانفسكم . ومن غناكم لفقركم ، ومما في ايديكم لما بين ايديكم فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن وكأن الاموات لم يكونوا احياء وكل ما ترونه فانه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هـــذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصـــورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم . اين الملوك الأولون . أين الجبابرة المتكبرون . المحـــاسب الله . والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد . وأهل الجنة ينعمون في روضة يحبرون . جعلنا الله واياكم من الذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا .

فهو في هذه الخطبة ـ كما ترى ـ قوى التأثير ، صادق الحس ، ذو عاطفة دينية فياضة ووجدان اسلامي سليم .

## الخطبة الثانية

وقال مالك بن دينار ، غدوت الجمعة فجلست قريبـــا من المنبر ، فصعد الحجاج ثم قال : نعم امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ راقب ربه ، امرؤ زود عمله ، امرؤ فكر فيما يقرؤه غدا في صحيفته ، ويراه في ميزانه ، امرؤ كان عند همه آمرا وعند هواه زاجرا ، امرؤ اخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله فان قاده الى حق تبعه وان قاده الى معصية الله كفه ، اننا والله ما خلقنا للفناء وانما خلقنا للبقاء وانما ننتقل من دار الى دار .

وهذه ايضا خطبة تفيض بالعاطفة الدينية الجياشة الصـــادرة عن قلب يخاف الله ويخشى عقابه .

## الخطبة الثالثة

وخطب يوما فقال :

أيها الناس : اقدعوا هذه الأنفس . فانها أسأل شيء اذا اعطيت واعصى شيء اذا سئلت فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها الى طاعة الله وعطفها بزمامها عن معصية الله فاني رايت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله .

وفي هذه الخطبة يأمر بالخير وينهى عن الشر ويرشد الناس الى ما فيه الخير والصلاح .

## الخطبة الرابعة

وخطب فقال

« اللهـــم أرني الغي غيا فاجتنبه . وأرني الهـــدى هدى فاتبعه ولا تكلني الى نفسي فأضـل ضــــلالا بعيدا والله ما أحب ان ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » .

اما هذه الخطبة فقد ازدرى فيهـــا الدنيا واحتقر العاجلة وعظم الآخرة وأكبر من شأن دار المآل ، كما انه استفتحها بطلب الهدى من الله والبعد عن الغي والضلال .

## عادته في خطابته

لما كان غرض الخطابة الأسمى وغايتهـا القصوى أن يؤثر الخطيب بمقاله في نفوس الســامعين بفكرته وان يقنعهم برأيه الذي يرتئيــه أو عقيدته التي يدين بها ، لما كان الامر كذلك ، كان لابد للخطيب من أن يصطنع أشياء أخرى غير الكلام كالحركات والاشارات وما اليهــا حتى يتسنى له بلوغ ما يبتغيه أو يهدف اليه من اقناعه السامعين بصحة قوله وحمله اياهم على ان يصدقوه فيما يقول ، فلهذا وجدنا كل خطيب يعتاد فعل شيء بعينه لنفس الغرض سالف الذكر . فمنهم من كان اذا خطب توكا على عصـــا ، ومنهم من توكا على سيف ومنهم من كان يحرك يده قبضا وبسطا .

وأما صاحبنا الحجاج فقد كانت له عادة تميز بهـا بين من عاصره أو سبقه من الخطباء . فقـــد كان اذا اراد أن يخطب ام المنبر متنكبا قوسا متقلدا سيفا معتصما متلثما ، فاذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ثم تكلم رويدا فلا يكاد يسمع ثم يزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد ، وبدأ الخطبة بصوت منخفض ثم الارتفاع به شيئا فشيئا ثم الزجرة أو التنفظ بنبرة شديدة قوية امر اصطنعه بعض المصاقع من خطباء هذا العصر . والسر في هذا أو سببه هو أن مخاطبة الناس بصوت منخفض يخدر الأعصاب الى درجة النوم في أكثر الاحيان ثم علو الصوت وارتفاعه يوقظ العقـــول وينبه الأعصاب ، وفي هـــذه الحال يفيق الناس واذهانهم خالية من كل شيء كما لو كانوا نائمين بليل فهم يفيقون على تلك الفكرة التي أراد الخطيب ان يوحي بها اليهم . ومعنى هذا أن البدء بالصوت المنخفض ثم التزايد فيه وسيلة من أنجع الوسائل التي يستعين بها الخطيب في اقنـــاع السامعين .

ومعنى هذا ان الحجاج كان أعلم بالنفسية البشرية وأدرى بأنجع الوسائل في التأثير عليها ، كما لو كان عالما من علماء النفس في العصر الحديث . ثم ان من عادته أيضـــا ان يلزم الصمت طويلا قبل أن يبدأ الخطبة وذلك يسترعي اليه الأنظار . ويبعث في نفـوس الناس الانتباه والاهتمام .

## خصائص الحجاج الفنية

اولا : كان الحجاج كغيره من خطباء العصر الأموى متأثرا بالقرآن وبعاليم الاسلام ، فهو يقتبس في خطبه ما يناسب المقام من آى الذكر الحكيم او يستشهد بحديث من الأحاديث النبوية كاستشهاده بحديث القبر عن عثمان بن عفان .

ثانيا : كانت عباراته قوية جزلة والفاظه قريبة الى ما يتلفظ به اهل عصره .

ثالثا : اذا اقتضى المقام خشـونة اللفظ وجفافه اتى الحجاج من ذلك بما يتفق وحياة الـسامعين واخلاقهم كخطبته في اهل الكوفة لما ولى أمر العراق ، فقد كانت الفاظها كما بينا غليظة خشنة بها جفاف البادية .

رابعا : كان يقسم الخطبة ويجعلها على مقدمة وموضوع وخاتمة، وكل جزء من هـذه الأجزاء يجانس البـاقى ، فلا نفـور ولا اختلاف ولا تباين بين الخاتمة والموضوع من جهة ولا بين المقدمة والموضـــوع من جهة اخرى .

فهو حين خطب اهل مكة بعد مقتل ابن الزبير حمد الله واثنى عليه ، ثم انتقل الى الموضوع وهو تهدئة عواطف الناس واقناعهم بأن ما ارتكبه ازاء ابن الزبير أمر يرتضيه الدين ثم ختمها بدعوة الناس الى الصلاة وذكر الله ، وكذلك كان التجانس تاما بين المقدمة والموضوع والخاتمة في خطبته التى القاها من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة فقد بداها بأشعار صور فيها نفسه بالقوة والقدرة على كبح جماح المخالفين وعلى قمع كل فتنة يقوم بها او يفكر في القيام بها احد العراقيين ، ثم انتقـل الى الموضوع وهو أن عبد الملك اختار من بين رجالهاشدهم بأسا واقواهم شكيمة واضبطهم للأمور واحزمهم في تصريف الشئون فولاه على أهل العراق ، ذلك هو الحجاج ، هذا هو الجزء الأول واما الثانى من موضوع هذه الخطبة فهو تبيين السياسة وتوضيح السيرة التى اعتزم انتهاجها الحجاج في أهل العراق وهى من الشـدة والحزم والقســوة والعنف والبطش بأسمى مكانة واعلى منزلة ثم ختمها بدعوة الناس الى اللحاق

بجيش المهلب وانه من تاخر أو تلكا منهم عن ذلك بعد أخذ عطائه سوف يلقى حتفه بسيف الحجاج .

خامسا : تتميز خطابته خاصة منها ما كان فى أهل العراق بالعنف والشدة والاغلاظ فى القول وبالتهديد والوعيد والزجر والتأنيب والشتم والسباب والتوبيخ والتقريع ، وبالجملة فقد كانت جمله وعباراته كقطع الصخر يقذف بها وجوه السامعين .

سادسا : كثرت الصور وتعددت اللوحات الفنية فى خطب الحجاج فما من جملة تقرؤها أو تسمعها حتى يخيل اليك انك تنظر الى تلك الصورة التعبيرية التى أرادها الحجاج ماثلة امام ناظريك واضحة القسمات بينة المعالم محدودة الأطراف والأبعاد .

سابعا ـ ظهرت المحسنات البديعية والصور البيانية بشكل واضح ملموس فى خطب الحجاج وبخاصة تلك التشبيهات والاستعارات التشخيصية فهو كثيرا مايخرج لنا الامر الذهنى او المعنى العقلى مخرج الشيء المحسوس او الملموس ، وذلك مثل قوله : ياهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ، ثم افضى الى المخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا الى آخره ، فهو كما ترى قد صور لنا بغى العراقيين وتأصل الشر والفساد فى نفوسهم - فى ذلك الحين ، بهذه الصورة الحسية التى تجعل السامع أو القارىء يتمثل ذلك المعنى امامه مشخصا مجسما .

ثامنا ـ كان الحجاج فى خطبه الدينية صادق الحس ، فياض العاطفة يؤثر فى نفوس السامعين الى درجة انهم ينسون من شدة تاثرهم وانفعالهم بموعظة الحجاج ماقد عرفوه عنه ووصموه به من البطش والقوة ، والظلم والاعتساف ، فهذا الحسن البصرى يقول من فرط تأثره بوعظ الحجاج وهو امام الوعاظ فى عصره « الا تعجبون من هذا الفاجر يرقى عتبات المنبر فيتكلم بكلام الانبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله فى قوله ويخالفه فى فعله » وهذا الكلام ان دل على شيء فانما يدل على تميز خطب الحجاج بقوة التأثير فى النفوس ، سواء ماكان منها فى معرض السياسة أم فى سبيل الدين .

## قدرته على الخطابة ومنزلته بين الخطباء

مما تقدم يظهر لنا فى وضوح أن الحجاج كان يعطى كل مقام مقاله ، ويخاطب كل أناس بما يناسبهم ، ويؤثر فى نفوسهم ويفعل بها من التأثير والانفعالات مايهدف اليه الحجاج ويبتغيه . الامر الذى يجعلنا نحكم على

الحجاج او نصفه بانه اقدر الخطباء ، او على الاقل الذين عاصروه ، فى اقناع الناس والتأثير فى عواطفهم ، فهذا مالك بن دينار وهو من سادات التابعين وكبارهم ، يقول ما رأيت احدا أبين من الحجاج ، انه كان ليرقى المنبر فيذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه حتى انى لاحسبه صادقا واظنهم كاذبين ، وكذلك شهد له بالفصاحة وتفوقه فيها على كل من سواه ، ماعدا الحسن البصرى ، شهد له بذلك كله امام اللغويين وشيخ النحاة ابو عمرو بن العلاء اذ يقول : مارايت افصح من الحجاج ومن الحسن ، ثم هو عالم نفسى قد جرب الناس وخبرهم وسبر غورهم وعرف اخلاقهم ، فكان بذلك اقدر الخطباء وأبلغهم واشدهم تأثيرا فى العواطف وتحريكا للوجدان وتهيئة للاذهان حتى يكون السامعون أسلس انقيادا واكثر استهواء فيصدقوا دون تردد ولا تشكك مايلقيه اليهم أو يخطبهم فيه . وقد كان لسعة ثقافة الحجاج وغزارة علمه بلغة العرب واشعارهم وتفقهه فى الدين وحفظه القرآن الكريم وروايته الاحاديث النبوية والمامه باخبار السابقين وايام الغابرين ، كان لذلك كله أكبر الاثر فى بلاغة الحجاج وفصاحته وتفوقه فى الخطابة وبزه جميع خطباء عصره وبخاصة فى الخطابة السياسية فقد استطاع ببلاغة منطقه وفصاحة قوله ووضوح الحجة وقوة العارضة والقدرة على الاقناع والتأثير ، استطاع بذلك ان يحكم العراقيين عشرين عاما ، برغم ماعرف به اهل ذلك القطر حين ذاك من المخالفة والمنازعة والخروج والانتقاض على الولاة ، مما كان يؤدى بالخليفة الى عزل الوالى أو استبداله . أما الحجاج فلم يفكر الخليفة يوما فى عزله أو استبداله حتى حين تغير الخليفة بموت عبدالملك ومبايعة الوليد ، فقد مكث الحجاج على ماهو عليه حاكما حازما ضابطا للامور فى ولايته على اتساعها وترامى اطرافها ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد ظل محل التقدير والاكبار من خليفة المسلمين وامير المؤمنين حتى توفاه الله وانتقل الى جواره .

# أثر الحجاج في خطباء بني العباس

## الاحوال السياسية في شرق الدولة الاموية بعد وفاة الحجاج

لما مات الحجاج نصير بني مروان وساعدهم الايمن اخذت دولتهم في الضعف والاضمحلال اذ اشتدت ثورات الخوارج في واسط والموصل والبصرة والاهواز وفي غير ذلك من اقطار شبه الجزيرة العربية وبقاعها ، ولم يكن لبني مروان خلف للحجاج في حنكته ودهائه واخلاصه واستبساله في سبيل دعم الدولة الاموية وتحصين بنيانها والمحافظة عليها من أن تنهار .

على ان شدة الحجاج وقسوته وكبته النفوس الثائرة التي تعودت في العراق وما جاورها الخروج والانتقاض على دولة الامويين في ثوب الخوارج تارة وتارة أخرى في صورة الشيعيين ، كانت تلك الشدة وهاتيك القسوة ذات أثرين ، احدهما ظاهر معروف والآخر باطن مستور احيط بكل سرية وكتمان . اما الاول فهو ذلك الهدوء النسبي والاستقرار المؤقت الذي ساد العراق الى اجل كان رهنا ببقاء الحجاج على قيد الحياة ، والثاني كان هو ذلك التجمع والتكتل في السر والخفاء على صورة تشبه تماما مانطلق عليه الآن اسم الجمعيات السرية ، وهذه الجمعيات وتلك التكتلات التي أحاطها بالكتمان الشديد ظهرت بعد وفاة الحجاج بقوة وعنف .

فهؤلاء الخوارج الذين غلبهم الحجاج على أمرهم واضعف شوكتهم وكاد يستأصل شأفتهم اخذوا يثورون في عنف وكثرة حتى ان مروان بن محمد كثيرا ماخرج بنفسه على رأس الجيش ليلقى جموعهم وجموع الثائرين الآخرين في حران والجزيرة ونصيبين ، وفي احيان أخرى كان يرسل ابنه على رأس الجيش لمحاربة الثائرين والمنشقين ، وقد كثرت ثورات الخوارج في مختلف البقاع وتباعد الاصقاع ، التي كانت تدور عليها رحى القتال بين هؤلاء الثائرين وبين عساكر الامويين وكانت جيوش مروان بن محمد قد انتصرت في العراق وشبه جزيرة العرب وفي نصيبين وحران ولكنه انتصار قد اوهن قوته وضعضع جيشه وجعل اهل الشام -- وهم الذين كانوا وحدهم دائما أنصار الأمويين ، تلك الانتصارات

التى احرزها مروان بن محمد بفضل قتال الشاميين معه جعلت اهل الشام يكرهون القتال ويسأمون الحرب والنزال .

هذا على أن مروان بن محمد نفسه كان بدوره قد اخلد الى شيء من الهدوء والاطمئنان بعد انتصاره على الخارجين والذين انقضوا عليه من ابناء عمومته واقرب الناس اليه من الامويين ، ولم يكن فى حسبانه ان الشيعة قد يفاجئونه بحرب عوان لاتبقى ولاتذر ولايسلم من شرها انسان لان الشيعة كانوا فى ظاهرهم ساكنين هادئين مستسلمين لايثورون ولاينقضون ، وقد غاب عن ذهن مروان ان بنى العباس قد افادوا من الدروس التى تلقاها ابناء عمومتهم فى ثوراتهم وانتقاضاتهم على السفيانيين من قبل وفي أوائل عصر المروانيين .

وقد غاب عن ذهن مروان بن محمد وولاته فى الشرق أن فرعا جديدا من الشيعة قد احكموا امرهم واخفوا سرهم ودعوا لانفسهم بأسلوب جديد اسلوب كله تكتم وتستر وكله دهاء . فقد جهد العباسيون فى اخفاء امرهم اذ دعوا لانفسهم سرا ولم يكشفوا عن الدعوة له بالامامة فى شيء اللهم الا ان يقولوا للناس بايعوا لامام من آل بيت رسول الله سيظهر امره عما قريب وسيملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا وسيجعل الناس فى حكمه سواء لافرق بين عجمى ولا عربى الا بالتقوى ، لايفضل العربى لعروبته ولايظلم العجمى بعجميته ، وقد جعلوا مركز دعوتهم خراسان ، وكانوا هم يقيمون فى أرض الشام وذلك مبالغة منهم فى التمويه والتضليل والتستر والكتمان ، فلما كان عام تسعة وعشرين ومائة هجرية ، اظهر العباسيون دعوتهم وكان ذلك فى خراسان وفارس وكرمان ، وكان والى بنى مروان وقت ذاك على خراسان نصر بن سيار ، وكان يناصر الامويين ويحارب الخوارج والشيعيين ، ولكنه لم يكن له حول ولا سلطان فارسل الى الشام يستنهض الخليفة ويستنجده وقد أخبره بأن الامر جد لاهزل فيه ، ولكن مروان بن محمد لم يعره كبير اهتمام ، فلما احس منه نصر بن سيار ارسل اليه كتابا كان غاية فى حفز الهمم وتنبيه الافكار وقد تمثل فيه بقول الشاعر (١) .

أرى تحت الرماد وميض نار
فيوشك أن يكون لها ضرام
فقلت من التعجب ليت شعرى
أأيقاظ امية ام نيام ؟

---

(١) انظر طبقات الشافعية ج ٢ ص ١١٢ .

ولكن مروان مع ذلك لم ينجده ولا أعاره اهتماما ذا بال ، فكانت الواقعة وقضى الامر « وكان امر الله مفعولا » فانتصر ابو مسلم فى خراسان واخذت جيوشه تزحف حتى دخلت العراق وبايعوا بالخلافة أول خليفة عباسى وهو ابو العباس السفاح ، وكان بعد بيعته أن وقعت المعركة الفاصلة على نهر الزاب التى تفرق فيها أهل الشام من حول مروان وانتصر عبدالله ابن على عم العباس على مروان ، وقد دان بذلك أهل الشام ومصر والعراق واليمن وخراسان وافريقية والمغرب لخلفاء بنى العباس ولم تقم اية ثورات فى أيام العباس ولا فى ايام المنصور من قبل الخارجين ولا من انصار بنى أمية ، وانما ثار فقط فى المدينة محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ؛ وكان قد اختفى من قبل ثم عاد الى الظهور وكان ظهوره فى المدينة المنورة دار هجرة الرسول وموضعه ومثواه الاخير عليه وعلى آله افضل الصلاة واتم التسليم .

# حجاج بني العباس

بعد هذا التمهيد الذى أوجزت فيه احوال الدولة الاموية بعد وفاة الحجاج مع المامة طفيفة بتلك الظروف التى صاحبت قيام الدولة العباسية ، انتقل بعد ذلك الى الحديث عن أهم خطباء بنى العباس وأكثرهم شبها بالحجاج بن يوسف واعنى بذلك داود بن على فاقول :

لقد كان داود بن على فى المدينة يمثل الحجاج فى العراق من حيث الخطابة ومن حيث البطش بالرعية والتنكيل بالخارجين على الدولة وان كان البون شاسعا والفرق كبيرا بين الرجلين من حيث ظروف الحكم واحوال القطر وطبائع الرعية من جهه ومن حيث كفاية الرجلين فيما نصبا له من جهة أخرى ، فالحجاج حين جاء العراق كان اهله قد تمردوا على السلطان ولجوا فى الخروج والعصيان واتخذوا كره الامويين لهم شعارا ومخالفتهم لامرائهم ديدنا ومراما .

وكانوا احزابا وشيعا منهم الخوارج ومنهم الزبيريون ومنهم من لشيع وهؤلاء هم الاكثرون ، وكان الولاة من قبل الحجاج قد عجزوا عن تطويع العراقيين وتشذيبهم ، فجاء الحجاج فقصم ظهور الثائرين وقطع دابر المفسدين حيث استأصل الشر ـ أو كاد ـ من نفوس العراقيين وخلق منهم امة جديدة تدين لبنى امية بالطاعة والولاء ، اما اهل المدينة فانهم كانوا أهل دعة واستسلام ، لم يثوروا بعد واقعة الحرة ايام يزيد ، وكانت ثورتهم اذ ذاك غضبا لمقتل الحسين بن على ـ كرم الله وجهه ـ وليست رغبة فى الخروج ولا حبا فى السلطان وفى مستهل عصر العباسيين لم يثوروا كذلك ولا انتقضوا ، ولكن محمدا النفس الزكية قد دعا لنفسه وخطب الناس وصلى بهم فأيدوه وهو هاشمى اصله من قريش البطاح صلته بالعباسيين اقوى وامتن واوثق عرى منها باى من بيوت الانصار أو ساكنى المدينة بوجه عام ولم تكن تلك الثورة اذا نحن تسامحنا فى التعبير ذات عنف وشدة كغيرها من الثورات التى تقوم على اساس من المبادىء والمعتقدات وانما كانت ثورة هادئة هى اشبه ماتكون بالسلم منها الى الحرب والى الاستسلام منها الى الانشقاق والانتقاض ، ولكن العباسيين ارادوا أن يكبروا الصغير ويعقدوا البسيط فجعلوا من خروج محمد النفس الزكية ومبايعة أهل المدينة اياه خطرا يتهدد دولتهم وثورة لها

اثرها الفعال فى محاربة سلطانهم واضعاف شوكتهم والتعجيل بزوال دولتهم ، وقد يكون ذلك على شىء من الحق أو وجه من الصواب لان دولة العباسيين كانت ناشئة والدول فى نشأتها تعد الصغيرة كبيرة ولا تسمح بحدوث القلاقل والاضطرابات مهما صغر شأنها وضاق اطارها لان ذلك من غير شك يضعفها ويحفز الآخرين على الخروج والعصيان .

ومهما يكن من امر فان داود بن على قد تخيل فى أهل المدينة تلك الاوضاع وهاتيك الاحوال التى سادت العراق أيام حكم يزيد بن معاوية وفى عهد مروان بن الحكم وأوائل دولة عبد الملك بن مروان فاشتد عليهم بمثل ما اشتد الحجاج على أهل العراق وقسا عليهم ثم ان داود بن على أراد ان يكون كالحجاج لا من حيث البطش والتنكيل فقط ، ولكن كذلك ايضا من حيث أسلوب الخطابة ، فكانت الفاظه غليظة فظة وجمله شديدة الوقع فى الآذان تعمل عملها فى العواطف والمشاعر والوجدان ، واليك ماجاء من خطبه على أسلوب الحجاج ونمطه فى غير مافرق يذكر ولا اختلاف ذى بال .

# خطب داود بن علي

## ١ ـ خطبته بالمدينة

ايها الناس : حتام يهتف بكم صريخكم ، اما آن لراقدكم ان يهب من نومه ؟ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ، اغركم الامهال حتى حسبتموه الاهمال ؟ هيهات منكم وكيف بكم والسوط بكفي والسيف مشهر :

حتى يبيد قبيلة فقبيلة
ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن ربات الخدور حواسرا
يمسحن عرض ذوائب الايتام

## ٢ ـ خطبته وقد بلغه ان قوما اظهروا شكاة بني العباس

بلغه ان قوما اظهروا شكاة بني العباس فافترع المنبر وحمد الله واثنى عليه ثم قال :

اعورا ياهل الختر والتبديل ؟ الم يردعكم الفتح المبين عن الخوض في ذم امير المؤمنين ؟ كلا والله حتى تحملوا اوزاركم واوزار الذين كانوا من قبلكم كيف فاهت شفاهكم بالشكوى من امير المؤمنين ؟ بعد ان حانت آجالكم فارجاها ، وانبعثت دماؤكم فحقنها . الآن يامنابت الدمن شبتم الفراء وديتم الخمر ، أما ومحمد والعباس ان عدتم لمثل مابداتم لأحصدنكم بظبات السيوف ، ثم يغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم ثم لا يكونون امثالكم ، مهلا يارويا الارجاف وابناء النفاق عن الخوض فيما كفيتم والتخطي الى ماحذرتم قبل ان تتلف نفوس ويقل عدد ويذل عز ومااتم وتلك ؟ .

الم تجدوا ماوعد ربكم حقا من ايراث المستضعفين مشارق الارض

---

( ١ ، ٢ ) انظر العقد الفريد ٢ : ١٤٦ جمهرة خطب العرب ٣ : ١٠ العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٥

ومغاربها ؟ بلى والحجر ولكنه حسد مضمر وحسك فى الصدور فرصة للمعاطس وبعدا للقوم الظالمين .

اورد هذه الخطبة صاحب العقد الفريد كما يلى :

احذر لسان وأمسه ؟ انتبه امرؤ لحظه . نظر المرء فى يومه لغده فمشى القصور وقال الفصل وجانب الزور « ثم اخذ بقائم سيفه فقال

ايها الناس ان بكم داء هذا دواؤه وانا زعيم لكم بشفائه فليعتبر عبد قبل ان يعتبر به فانما بعد الوعيد الانقطاع وانما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله .

فداود بن على ـ فى تقديرنا ـ قد اشبه فى خطبته الاولى على مابها من ايجاز واقتضاب ولعلها كانت اطول ، ولكن الرواة اختصروها وحذفوا من اولها ومن آخرها ، ولم ينقلوا الينا منها الا ماقد اثبتناه ، وهى جمل قليلة آخرها شعر واولها قوله « يأايها الناس » ليس فيها حمد لله ولا صلاة على النبى ، ولو كان حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه وسلم لذكر ذلك الرواة او لقالوا على حد تعبيرهم حين يروون امثال هذه الخطبة ويحذفون الحمد والتسليم لقالوا كما اعتادوا أن يقولوا فى مثل هذه الحال قال فلان بعد ان حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وسلم كذا وكذا ، أو يقولون بعبارة أخرى ، قال بعد حمد الله والصلاة على النبى ، او بعبارة ثالثة قام فحمد الله ثم قال : ايها الناس .. الخ مايريدون ان يذكروه أو يرووه من خطب او كلام ولكنهم اعنى الرواة حين نقلوا الينا هذه الخطبة واثبتوها فى كتبهم لم يقولوا انه حمد الله واثنى عليه او غير ذلك من تلك العبارات التى اسلفناها والتى دابوا على أن يذكروها فى مثل هذا المقام ، ولكن بشرط أن يكون الخطيب قد قال شيئا من تلك العبارات ، اما اذا هو لم يقل فانهم لايفترون ولايكذبون وان اباحوا لانفسهم ان يكذبوا او ينقدوا فليكن ذلك منهم فى امر ذى بال اما وان هذا الامر لايضير الخطيب ولا ينفعه ، كما انه لايضر الرواة كذلك ولاينفعهم فى شىء على الاطلاق ، لذلك كله ابيح لنفسى القول بأن داود بن على لم يحمد الله ولا اثنى عليه ولاذكر نبيه ولا صلى وسلم عليه ، فهو فى ذلك كله قد أشبه الحجاج فى خطبته التى القاها فى المسجد الجامع بالكوفة ، فقد جاءت خطبة الحجاج هذه بتراء لاحمد فيها ولاثناء ولا صلاة ولا تسليم ، على طريقة زياد بن ابيه كما سبق ان فصلناه فى موضعه من كلامنا من الحجاج وبخاصة عندما عرضنا لتبيان مدى تأثر الحجاج بزياد بن ابيه ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان خطبة الحجاج الثانى واعنى به داود بن على قد جاءت على غرار خطبة الحجاج بن يوسف ، فانها قد اشبهتها الى حد كبير من حيث قصر جملها وما اشتملت عليه من صور متحركة كانها شىء يقع امام العيان بما فيها من تجسيم للمعانى واخراجها فى صورة حسية لها اثرها الفعال فى نفوس السامعين ، ثم انها لم تخرج عن التأنيب والتوبيخ والتهكم والتقريع ، ومما يتمم صورة الشبه بين

الخطبتين ، او بالاحرى بين اسلوبى الخطيبين ؛ ذلك الشىء الذى استشهد به كل منهما فى خطبته فهو فى كلتيهما فى موضعه .

هذا وخطبة داود التى اثبتناها بعد التى شبهناها بخطبة الحجاج فى اهل الكوفة واولها قوله ( احذر لسان رأسه ، انعظ امرؤ بغيره ) فهى قد جمعت بين بعض خصائص خطبة الحجاج فى البصرة وبعض خصائص خطبته عندما دخل الكوفة فقد اشتملت على بعض ماجاء فيهما من التهديد والوعيد والتوبيخ والتبكيت ، ورمى المستمعين بالظلم والفجور وبانهم لا يصلحهم الا الجلد بالسوط والا قطع الاعناق بالمشرفى البتار .
والحجاج لئن كان قد توعد اهل الكوفة والبصرة بالتنكيل والقسوة والباس الشديد ، فان داود بن على قد توعد اهل المدينة بمثل ذلك او يزيد ، وكما ان الحجاج قد تمثل بالشعر بقصد الامعان فى التهديد والافراط فى الارهاب والوعيد ، فان داود قد قفا اثره واستن سنته ونسج على منواله ، فتمثل هو كذلك بالشعر الذى هو بحق غاية فى تصوير المعانى وتجسيم المراد بحيث يصبح القصد من الارهاب والتوعد كالشىء الملموس ، وكان ابصار السامعين تراه وايديهم تلمسه ، وتلك براعة ليس بعدها براعة فى الخطابة والتعبير عن الارادة بقصد بلوغ الغرض وتحقيق المرام ؛ وهو ان ينصاع المحكوم للحاكم وان يستكين الثائر وتهدأ العواطف وتخبو من النفوس شعلة الفتنة وينطفىء اوارها ، وفى الخطبة الثالثة التى رويناها هنا لداود بن على صورة لاتكاد تختلف فى كثير عن صورة تلك الخطبة التى اشتهر بها الحجاج والتى كانت ومازالت سببا فى ذكر الحجاج والتحدث عنه وترديد اسمه على كل لسان ، فالحجاج قد وصف اهل العراق بالشقاق والنفاق وبالفسق والكفران ، وان رءوسا قد اينعت وحان قطافها ويعنى بذلك دعاة الفتنة وزعماء الثورات ، كما انه قد تحدث عن نفسه فزعم انه قوى شديد لم يجد امير المؤمنين احدا اصلب عودا منه ولا اقوى شكيمة فرمى به اهل العراق كى يقوم ما اعوج منهم ويهدى من ضل ويرد كلا الى صوابه وانه سوف يسوقهم سوق الابل الى غير ذلك من عبارات التهديد وصور الوعيد .

اذا كان الحجاج كذلك فى خطبته تلك فان داود قد حذا حذوه وترسم خطاه اذ تقمص شخصية الحجاج . وقد خيل اليه انه هو وان أهل المدينة ليسوا هم أنصار النبى عليه السلام ولا أبناء أنصاره ولا أحفادهم وانما هم أضحوا أمام ناظريه وكانهم اهل العراق فوصفهم بانهم أهل الارجاف وأبناء النفاق ، وفى هذه العبارة زيادة ظاهرة على معنى عبارة الحجاج التى نادى بها أهل الكوفة الا وهى قوله ( يا اهل العراق ، يا اهل الشقاق والنفاق ) فان معنى قول الحجاج هذا لا يزيد على وصف أهل العراق بأنهم أهل نفاق وشقاق ، وهذا التعبير صحيح فى أن اهل العراق

شيء والنفاق والشقاق شيء آخر يعرض لهم أحيانا وقد ينفك عنهم أحيانا اخرى . أما اهل المدينة فانهم في رأى داود بن علي ملازمون للنفاق ، لايوجدون في لحظة من زمان ولا في بقعة من مكان الا وهم منافقون وان النفاق صفة تلازمهم لا تنفك عنهم بحال من الاحوال ، مثلها في ذلك مثل صفة الأبوة والبنوة فانهما صفتان لا تنفك احداهما عن الانسان ، لان الانسان اما ابن أو اب ، والأب كان ابنا قبل أن يكون أبا ، هذا وعبارة داود تحكي قدم النفاق في أهل المدينة وتاصله وانهم فيه عريقون ، أما عبارة الحجاج ذاتها انما تصف أهل العراق في زمانه ولا تلزمهم اياها في جميع الامكنة والاوقات على أن داود قد أربى على اسلوب الحجاج اذ خاطب أهل المدينة بنفس الاسلوب الذى خاطب به النبى عليه السلام قريشا يوم بدر ، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبى عليه السلام وقف على راس بعض أولئك القتلى فقال « يا فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فاني وجدت ما وعدني ربي حقا » ، وهكذا ( نجد داود يخاطب الأنصار فيقول ) « الم تجدوا ماوعدكم ربكم حقا من ايراث المستضعفين مشارق الارض ومغاربها بين الحجر والحجر ، ولكنه حسد مضمر وحقد في الصدور ، فرغما للمعاطس وبعدا للقوم الظالمين » ثم انه خاطبهم متوعدابالاسلوب الذى خاطب به الحجاج أهل العراق ، فان كان الحجاج قد قال لاهل الكوفة « اما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المردة ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل » فان داود قد قال لاهل المدينة « أما ومحمد والعباس ان عدتم لمثل ما بداتم لاحصدنكم بظبات السيوف ثم يغني ربنا عنكم ونستبدل غيركم ثم لايكونون أمثالكم» فأسلوب الخطيبين واحد من حيث الشدة والقسوة والتهديد والوعيد ومن حيث وصف كل منهما نفسه بالصرامة والقوة والجبروت وانه على البطش بهم قديرولكني الاحظ فرقا واضحا بين داود والحجاج شبيه بذلك الفرق الذى أعربت عنه في الجانب الثالث بين الحجاج بن يوسف وزياد بن أبيه وهو هنا منوط كما كان هناك كذلك بنفسية الخطيب وشعوره الذاتي فالحجاج بن يوسف الثقفي رجل من عامة العرب لم يك هاشميا ولا أمويا ولا من قريش في شيء وانما كان من بني ثقيف قوم دخلوا الاسلام متأخرين الامر الذى جعلهم يقعدون عن طلب الخلافة ، لا بل انهم لم يطمعوا فقط فيها ولا ذكر بخارهم أن يصبحوا أهل هيمنة وملك وسلطان .

لذلك كله كان الحجاج في قرارة نفسه يستصغر نفسه ويهون من شأنها فلم يتح لها فرصة التفكير في ادعاء الحق في الامامة أو الخلافة ولكنه ظل قانعا بما بداه اياه عبدالملك وخلفاؤه من بعده من القيادة والولاية ومن هنا كانت خطبه خطب رجل قائد قد مارس الحرب وأجاد فنون القتال فهو شجاع غضنفر باسل همام يصبر على المكروه ويقبل على

الشدائد ، فاذا جد الجد شمر عن الساق كأنه الاسد الجسور ، وهو من قبل ومن بعد وفى كل وقت فتى مقدام ·

اما داود فانه من آل بيت النبى وعم الخليفة يؤمن بأن الخلافة حق له ولآل بيته وأن الله قد جعل فيهم السلطان ، فهو يخاطب أهل المدينة بأسلوب الملك العظيم والسلطان القوى ذى الشوكة والهيمنة والبطش والجبروت ، ثم ان ظاهرة الاقتباس من القرآن واضحة جلية ترد بكثرة نسبية فى خطب الحجاج بن يوسف وفى خطب داود بن على ؛ فهذا الحجاج قد اقتبس فى خطبته قوله تعالى « ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» وذلك بقصد التخويف والترهيب وتصوير ماقد يلقاه منه اهل العراق من التنكيل والوعيد فان داود بن على قد اقتبس كذلك من القرآن — على سبيل المثال — قوله للانصار :

« يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم » ·

وجملة القول فى هذا المقام هو أن داود بن على قد حذا حذو الحجاج وسار فى طريقه ونهج منهجه ونسج على منواله فى خطابته من جهة ومعاملته لاهل المدينة من جهة أخرى · فقد نكل ببعض أهل المدينة وقسا عليهم ورماهم بالفرار والارجاف والنفاق وتوعدهم بكل تنكيل وتعذيب وتهلكة ودمار كما صنع الحجاج بأهل العراق سواء بسواء ، وان كان ثمة فرق فهو مدة الولاية واتساع الرقعة وكثرة الرعية فأهل المدينة عددهم قليل ورقعة اقليمهم قليلة ضيقة ، ومدة ولاية داود بن على كانت قصيرة الأمد، أما أهل العراق فان عددهم غفير ، وارض العراق شاسعة مترامية الاطراف ومدة حكم الحجاج كانت طويلة الامد قد أربت على عشرين عاما على وجه التقريب ، هذا وخطبة داود كخطبة الحجاج فى قصر الجمل وصعوبة الالفاظ وخشونتها وفى شدة وقعها على الآذان وبالغ أثرها فى النفوس والاحلام ثم ان كلا الخطيبين قد اقتبس من القرآن ، وتمثل بشعر العرب وأرسل الحكم وضرب الأمثال · وبعد ، فالجزالة والرصانة والقوة والفخامة قد سادت خطب داود والحجاج وهذا دليل على تمكن الخطيبين من اللغة وانهما قد أخذا بناصية الكلام ·

# خـــــاتمة

مما تقدم وعلى ضوء ماذكرناه من خطب الحجاج وداود بن علي ومعاوية وزياد بن أبيه نستطيع القول بان معاوية كان استاذ مدرسة خطابية طابعها الشدة والقسوة واطارها الترهيب والتهديد والتنكيل والعسف والوعيد، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان هذه المدرسة قد امتازت بانتقاء الالفاظ وجزالتها وقوتها وبالخشونة اذا اقتضى المقام الخشـونة ، والجزالة اذا اقتضى الامر الجزالة كما امتازت أيضا باصطناع المحسنات البديعيـة كالجناس والطباق والتورية فى بعض الاحيان ثم الاكثـار من المجازات والتشبيهات والاستعارات والكنايات بالحذف والايجاز وغير ذلك مما يذكر فى علم المعاني والبديع والبيان من وجوه المبالغة وانواع التحسين واساليب البيان ، وكذلك امتازت هذه المدرسة الخطابية باستعمال الفصيـح من القول البعيد بقدر الامكان عن المتداول من الكلام فى التقاضى والتحادث والاحتجاج ، لا بل انها كادت تكون الفاظها او كلماتها لا يفهمها أبناء هذا العصر الا اذا رجعوا الى كتب المعاجم كالقاموس المحيط وتاج العـروس والمصباح ولسان العرب ، وغير ذلك من قواميس اللغة ومعجماتها · وأخيرا اقول ان هذه المدرسة قد كثر فيها الاستشـهاد بالشعر وارسـال الحكم وضرب الأمثال وبالتصوير الرائع وتجسيم المعاني واخراجها فى ثوب حسن وكأنه شيء ملموس ترى الأعين حركته ونلمس الايدي كثافته ، وذلك امعانا منهم ــ اعني خطباء هذه المدرسة ــ فى التهديد والوعيد كي يجعلوا الناس يعتقدون جازمين ان ما يسمونه حقيقة واقعة وان لم تكن قد حصلت فهي قريبة الوقوع عسى أن يرتدعوا ويزدجروا عما هم فيه من الغي والضلالة يرجعون · وعلى هذا فوصفنا داود بن علي بحجاج بني العباس أو قولنا عنه انه الحجاج الثاني ، حق أو قريب من الحق ليس فيه افتئات ولا غلو ولا اعتساف ولا غرور فان أحدا من بني أمية سواء كان خليفة أو واليا لم يوصف قط حتى ولا من الاعداء بأنه سفاح أو سفاك ، على حين وصف أول خليفة عباسي بذلك ، والذي يقرأ تاريخ قيام الدولة العباسية واخبارها وأخبار انصار ابي مسلم وعبد الله بن علي على بني أمية وأنصارهم من

اهل الشام ومافعله السفاح بالجموع القادمة عليه من الشاميين ليدهش كثيرا من تلك الارقام التى يذكرها المؤرخون حينما يحصون للقتل ومن اودعوا السجن ، فبطش الحجاج وقسوته وما عرف عنه من الفتك والسجن والتنكيل ، عدل وانصاف ورحمة واشفاق اذا ما قيس بما ارتكبه خلفاء العباسيين وقادتهم فى حق بنى امية واهل الشام . ناهيك بما لقيه العلويون من العباسيين وهم ابناء عمومتهم من تنكيل يدمى له القلب وتقطيع يندى له الجبين . هذا وكما كان لمدرسة الحجاج امتداد فى العصر العباسى ،كان للخارجين ومدارسهم والاسلوب الذى انتهجوه فى خطبهم امتداد كذلك فى هذا العصر ، فان كان داود بن على خليفة الحجاج وتلميذه الذى أخذ عنه الاسلوب وطريقة التعبير وكيفية التصوير ، وحذا حذوه ونسج على منواله فى اقتضاب الجمل وانتقاء الالفاظ وغير ذلك من خصائص مدرسة الحجاج حتى أضحى فى نظرنا للعباسيين بمثابة الحجاج للأمويين .

اذا كان الحال على ما وصفت بين الحجاج بن يوسف وداود بن على من حيث التأثر والتأثير فانى استطيع ان اقول ان شبها كهذا وقع بين الخوارج وخطباء آخرين من العباسيين . فهذا أبو جعفر المنصور قد تأثر بالغ التأثر باسلوب الخوارج . واليك مثلا لذلك خطبته التى القاها اثر أخذه عبد الله بن الحسن .

لما اخذ عبد الله بن الحسن واخوته والنفر الذين كانوا معه من اهل بيته ، صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبى صلعم ثم قال :

يا اهل خراسان : انتم شيعتنا وانصارنا واهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وان اهل بيتى هؤلاء من ولد على ابن ابى طالب ، تركناهم والله الذى لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل او كثير فقام فيها على بن ابى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وانصاره واصحابه وبطانته فقتلوه ثم قام من بعده الحسن بن على . فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال فقبلها فدس اليه معاوية : انى اجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه فاقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن على . فخدعه اهل العراق واهل الكوفة اهل الشقاق والنفاق والاغراق فى الفتن اهل هذه المدرة السوداء واشار الى الكوفة . فوالله ما هى بحرب فاحاربها ولا بسلم فاسالمها ، فرق الله بينى وبينها ، فخذلوه واسلموه حتى قتل ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه اهل الكوفة وغروه ، فلما اخرجوه واظهروه اسلموه ، وقد

كان أبي محمد بن علي فناشده في الخروج وساله : الا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له ، انا نجد في بعض علمنـــا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة وانا أخاف ان تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود ابن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وصمم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو امية فاماتوا شرفنا واذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عنـــدنا ثارة يطلبونهـــا وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب آخر دلهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراء حتى بعثكم الله لنا شيعة وانصارا فأحيا شرفنـــا وعزنا بكم أهل خراسان ودفع بحقكم أهل الباطل واظهر حقنا واصار الينا ميراثنا عن نبينا صلعم فقر الحق مقره واظهر مناره واعز انصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضـــل الله فيها وحكمه العـــادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلعم .

جهلا على وجبنا عن عدوهم      بئسما الخلقان الجهل والجبن

فاني والله يا أهل خراسان ما أتيت في هـــذا الأمر وما اتيته بجهالة . بلغني عنهم بعض السقم والتقرح وقد دســـت لهم رجالا فقلت : قم يا فلان فخذ معك من المال كذا أو حذوت لهم مني مثـــلا يعملون عليه فخرجوا حتى اتوهم بالمدينة ، فدسوا اليهم تلك الاموال فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت بي عنـــد ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي فلا يرون اني أتيت ذلك على غير يقين ، ثم نزل وهو يتلو على درجة المنبر :

« وحيل بينهم وبين مايشتهون ، كما فعل بأشـــياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب . »

فأبو جعفر المنصـــور في خطبته هـــذه لم يختلف في شيء عن الخوارج من حيث الطعن على علي بسبب التحكيم كما انه لم يختلف كذلك عن الأمويين من حيث النسب والتهم وتشـــويه السيرة والذم بشتى الوسائل لعلي وبنيه ، هـــذا من حيث المعنى او المضمون أو الغرض والمقصود اذ أن قصد المنصور من خطبته هذه لم يكن سوى ذم علي وبنيه في سلوكهم واخلاقهم وتصرفاتهم وما كانوا يأتونه من افعال ويصنعونه من أعمال ســـواء كانت ســـياسية تلك أو خلقية أو اجتماعية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فانه اراد أن يقول ان عليـــا وبنيه ليسوا أهلا للخلافة لا من حيث الجدارة ولا من حيث الحق في الوراثة كما كانوا يدعون هذا . على أن تأثر المنصور بذلك الأسلوب

القصصي الذى اصطنعه الخوارج فى خطبهم لواضـــح جلي لا يعوزه الدليل ولا يفتقر الى برهان ، فهو كما ترى قد شرع يقص على اهل خراسان ما كان عليه حال العباسيين ايام الأمويين وكيف انهم قد خلوا السبيل بين ابناء علي وبين الخلافة عساهم يظفرون بها أو يستخلصونها بانفسهم من أيدى الامويين فلم يفلحوا ولا عادوا من كل ثوراتهم التى ثاروها بطائل ، ثم ذكر كيف أن أبناء علي جروا علي بنى العباس الهـوان والذل والايذاء من قبل الامويين لا لذنب جنوه ولا لاثم اقترفوه اللهم الا انهم كانوا أبناء عمومة العلويين ، فلذلك فقط لحق بهم ما لحقهم من الشتات والتشريد والظلم والجور والاضطهاد . كما أن أسـلوب الشيعة فى خطبهم أيام الأمويين لم تتقـدم آثاره ومظاهره من خطب العباسيين وبخاصة خطبة المنصور التى نحن بصـددها ، فان ادعاء العلويين أنحق فى الخلافة بالوراثة وأن ذلك أمر يحتمه الدين ، هـذا الادعاء الذى كان اهم المعانى التى تضمنتها خطب الشيعة تجده فى خطبة المنصور ، ولكن على عظم الفارق وبعد المسـافة بين هذا الخطيب العباسى وخطباء الشيعة السابقين كالحسن بن على مثلا ، فبينما كان الحسن يدعى أحقيته بالخلافة وقد تنازل عنها وافلت من يده الزمام ، اذ بنا نجد المنصور يدعى الحق فى الخلافة ، وهو خليفة لا يقوى على انتزاعها منه فى ذلك الوقت انسان ، فاذا كان الحسن حين ادعى أن الخلافة حقة ، كان الدليل يعوزه وينقصـه على ذلك البرهان بأن المنصور قد ادعى ذلك الحق والدليل واضح والشاهد ماثل والبرهان ساطع والحجة قائمة . هذا على أن خطبة المنصور هذه وغيرها من خطبه لم تخل من الاستشهاد بآى القرآن ولا من ارسال الحكم وان كان على قلة ، ولا من ضرب الأمثال الأمر الذى يجعلنا نقول ان المنصور كان خطيبا مفلقا مفوها مصقعا يأخذ بناصـية المعانى ويمتلك خطام الأسـاليب ، فهو قد جمع بين مزايا خطبـاء الأمويين والشـيعة والخوارج ، ولا غرو فان القوة والوضـوح وأسلوب القصص الذى وجدناه فى شعر الخوارج أيام الأمويين نجده فى خطب المنصور بشكل واضح جلي وكذلك ارسال الحكم وضرب الامثال والاستشهاد بالأشعار وانتقاء الالفاظ واختيار الحكم ولكن فى غير ماتقعر ولا اغراب ، محل ذلك نجده فى خطابة أبى جعفر ثانى خلفاء بنى العباس واعظمهم خطرا واعمقهم اثرا فى توطيد صرح دولة العباسيين مثله فى ذلك مثل معاوية للسفيانيين وعبد الملك للمروانيين فكل من هؤلاء الثلاثة ارسى دعائم حكمه ووطد أركان دولته حتى جاء من بعده فجلس على العرش وليس حوله من ينـازعه أو يقاومه او يخـذله وينقض عليه اللهم الا حالات بسيطة واحداث تافهة لا يقام لها وزن ولا تدخل فى الاعتبار هنا ، على أن اسلوب خطـابة الزيديين وان لم يكن له اثر واضـح فى خطب

العباسيين الا أنه لم ينقرض بانقراض دولة الزبيريين بل ظل قائما قد امتد به البقاء فى شخص خالد بن صفوان الذى كان له شأن فى هذا المضمار أيام عبد الله بن الزبير وفى أيام السفاح واليك طرفا مما روى عن خالد بن صفوان من جذل القول وبليغ الكلام .

روى الجاحظ قال :

« كان خالد بن صفوان الهيثمى من سمار أبى العباس السفاح واهل المنزلة عنده ففخر عليه الناس من بنى الحارث واكثروا فى القول فقال ابو العباس لم لاتتكلم ياخالد ؟ فقال : اخوال امير المؤمنين وعصبته قال : فأنتم اعمام امير المؤمنين وعصبته . قال خالد : وما عسى أن اقول لقوم كانوا بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عربة دل عليهم هو هو ، وغرقتهم فأرة وملكتهم امرأة » .

وروى الحصرى فى زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على ابى العباس السفاح وعنده اخواله من بنى الحارث بن كعب فقال : ماتقول فى اخوالى ؟ فقال : هم هامة الشرف وعرين الكرم وغرس الجود ، ان فيهم خصالا ما اجتمعت فى غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لمة واكرمهم شيما واطيبهم طعما واوفاهم ذمما وابعدهم همما . الجمرة فى الحرب والرفد فى الجدب والراس فى كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب .

فقال : وصفت ابا صفوان فاحسنت ، فزاد اخواله فى الفخر فغضب ابو العباس لاعمامه فقال : افخر يا خالد على اخوال امير المؤمنين ؟ قال وانت من أعمامه قال :

« كيف افاخر قوما بين ناسج برد وسائس قرد ودابغ جلد وراكب عرد دل عليهم هو هو وغرقهم جرذ وملكتهم امرأة . » فاشرق وجه أبى العباس .

هذا ومن بليغ ما أثر من كلام خالد بن صفوان ما عزى اليه انه فاخر رجلا من بنى عبد الدار الذين يسكنون اليمامة فقال له العبدرى من انت ؟ قال : « أنا خالد بن صفوان بن الاهتم » فقال له العبدرى ـ انت خالد « كمن هو خالد فى النار » وانت ابن صفوان ، وقال الله تعالى « كمثل صفوان عليه تراب » وانت ابن الأهتم والصحيح خير من الأهتم . فقال له خالد بن صفوان : يا أخا بنى عبد الدار اتتكلم ؟ وقد هشمتك هاشم وامتك بنو امية وخزمتك بنو مخزوم وجمحتك بنو جمح فانت عبد دارهم تفتح اذا دخلوا وتغلق اذا خرجوا » .

فقام العبدرى محموما . فمفاخرة خالد بن صفوان هذه التى وقعت بينه وبين بعض بنى الحارث ، وتلك التى حدثت بينه وبين العبدرى هى دون شك نوع من انواع الخطابة لأن الاقناع الذى هو أهم اغراض الخطابة ومدارها قد توافر فيها ، ثم انها كلام منثور القى على ملأ من الناس بأسلوب فيه جدل وفيه استدلال وفيه نوع حجة وشبه برهان على انها تثير العاطفة وتحرك الوجدان . ولعل هذا هو الذى كان سببا فى أن طلب السفاح من خالد ان يطرى عمومته بما يفخرون به على خئولته وكانوا من اليمن واصل امه كان من الانصار واصل الاوس والخزرج جاءوا من اليمن على اثر انهيار مارب وتخريب سبأ وتشتت اهلها كما هو معلوم من تاريخ العرب قبل الاسلام وبخاصة من كان منه فى أخبار السبئيين . هذا على أن خالد بن صفوان فى كلامه قد بلغ القمة فى جودة القول وبلاغة التعبير ، على ان الفاظه الفاظ منتقاة فصيحة واضحة المعنى لها رونق وبها عذوبة وفى موسيقاها وقع تطيب به الآذان ثم هى بعد وليدة التمجيد والتزوير وان كانت القصة تعطى انها انما جاءت على سبيل الارتجال ، ولو صح انها مرتجلة لكان بذلك خالد بن صفوان فى تقديرى اقدر معاصريه على التعبير الخطابى وأن طاقة الخطابة لديه مكينة عميقة . وأيما كان فان خالد ابن صفوان خطيب مفوه قد نطق بأفصح اللفظ وابلغ القول واجود الكلام ، هذا وجملة القول فيه : انه كان قديرا على التاليف بين الألفاظ المتناسقة فى اللفظ المناسب فى المعنى فلم يضع كلمة فى غير موضعها ولا أردف لفظة بلفظة أخرى تنافرها ولا جاء بمعنى مستهجن ولا أتى بقول فيه قبح فنى ولا عقد الأساوب ولا اغمض المعنى ولم يعاظل قط فى الكلام فهو بحق خطيب مصقع وذو كلام فصيح غاية فى الجودة قد بلغ اسمى درجات البلاغة واعلى مراتب الفصاحة وكلامه كان وما زال يروى على انه نماذج فنية يقصر دونها اكثر الكلام .

# مصادر الكتاب

| اسم الكتـــــاب | المؤلف |
|---|---|
| الشفاء والاشارات | ابن سينا |
| البداية والنهاية ط القاهرة ٨ و ٩ | ابن كثير |
| الكامل | ابن الأثير |
| التاريخ الكبير ط دمشق المجلد الرابع | ابن عساكر |
| وفيات الأعيان ط القاهرة المجلد الرابع | ابن خلكان |
| سرح العيون | ابن نباته المصرى |
| زهر الآداب | ابن اسحق الحصرى |
| شرح نهج البلاغة ط الهند ٢٠ جزءا فى مجلدين | ابن أبى الحديد |
| الكامل ط لندن | المبرد |
| الحجاج بن يوسف الثقفى ، الحاكم او الخطيئة | ابراهيم كيلانى |
| ط • دمشق • | أبو بكر الباقلانى |
| اعجاز القرآن | أبو العباس القلقشندى |
| صبح الاعشى ط ، القاهرة ـ المجلد الاول | |
| جمهرة خطب العرب ٣ أجزاء | أحمد زكى صفوت |
| عيون الاخبار | ابن قتيبة الدينورى |
| الخطابة ترجمة وتحقيق الدكتور ابراهيم سلامه | |
| ط ، القاهرة | ارسطو طاليس |
| مجمع الامثال | الميدانى |
| امالى السيد المرتضى الجزء الاول | المرتضى |
| دستور معالم الحكم | القضاعى |
| نهاية الارب ط • القاهرة جـ ٧ | شهاب الدين النويرى |
| الحجاج بن يوسف الثقفى ط • القاهرة | عمر أبو النصر |
| سيف بنى مروان ط ـ القاهرة | عبد الرازق حميده |
| معاهد التنصيص | عبد الرحيم العباسى الاول |
| الخطابة ط • القاهرة | نقولا فياض |
| تاريخ الادب العربى ط • دمشق الاول | ديجينيس بالاشير |

# الفهرس




١٧١ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠٩٢
٤٠٥٨٩ - ٤٠٨١٤

